

النزعة الاجتماعية في شعر البوصيري

شفيق محمد عبدالرحمن الرقب

جامعة مؤتة - كلية الآداب قسم اللغة العربية وآدابها

تاريخ تقديم البحث: ١٩٩٣/١٠/٢٧

تاريخ قبوله للنشر: ١٩٩٤/١١/٢٣

ABSTRACT

This paper handles the social approach in the poetry of Al-BouSiri from two angles: subjective and artistic. At the level the writer pinpoints the major social phenomena that Al-Bou Siri wrote on, such as the financial and administrative corruption, poverty, group biousness and sofism. But at the artistic level, the writer studies the artistic means that AL-Bou Siri manipulated and the inclination of this poet towards reality.

ملخص

يدرس هذا البحث النزعة الاجتماعية في شعر البوصيري من جانبين: الجانب الموضوعي والجانب الفني؛ ففي الجانب الموضوعي استخلص الباحث الظواهر الاجتماعية الكبرى التي تناولها البوصيري في شعره، وهي: الفساد المالي والإداري، والفقر، والعصبية الطائفية، والتصوف. وفي الجانب الفني درس الباحث الأداة الفنية التي عبّر بها الشاعر عن تلك الظواهر، ولاحظ ميل الشاعر إلى الواقعية في التعبير والتصوير.

مدخل:

تمّت في عهد المماليك انتصارات عسكرية كبرى، وإنجازات علمية وعمرانية متميزة، ومع ذلك، فإنّ المصادر تشير إلى أنّ مصر شهدت في العصر المملوكي الأول سنوات من عدم الاستقرار الاجتماعي لطائفة من الأسباب، أهمّها طبيعة نظام الحكم، وهو حكم عسكري كان الصراع على السّلطة من أبرز سماته. ويكفي أن يقال هنا إنّ معظم سلاطين المماليك كانت نهاياتهم فاجعة، وإنّ هذه النّهاية قد تكون والسّلطان في أوج انتصاراته العسكرية، ليعتلي الحكم بعده سلطان أخريكون مهدداً بمواجهة المصير الذي انتهى إليه سلفه.

وانسجاماً مع هذه النّزعة العسكرية في الحكم، فقد كانت القوّة هي أساس الملك عندهم، ومن ثمّ حرص سلاطين المماليك على تقوية جيوشهم، وإظهار أبّهة ملكهم وفخامة سلطنتهم، فأحاطوا أنفسهم بالحراسات القويّة، والقللاع الحصينة، والمراسيم المعقّدة، وعزلوا أنفسهم عن الرعيّة، وعاشوا بمنأى عنها، وأوكلوا تدبير شؤون البلاد للولاة ونوّاب السلطنة، حيث صار ثمة فاصل كبير بين السّلطة العسكرية والإدارات المدنيّة للدولة. وقد ترتّب على هذا الفصل استئثار الفساد في تلك الإدارات، فصارت وظائف الدولة تباع وتشترى، وينافس عليها من ليس أهلاً لها، وصار بإمكان هؤلاء أن يصلوا إلى الوظائف ببذل المال والتقرب من السلطان^(١). وكان هؤلاء بمجرد حصولهم على الوظائف التي يطمعون فيها ينتزعون الأموال من الرعيّة، ويكلّفونها ما لا طاقة لها به من الضرائب الباهظة، فغدت الأموال والغلال تصبّ في حجور «أهل الدولة وأولي الجاه وأرباب السيوف الذين تزايدت في اللذات رغبتهم، وعظمت في احتجار أسباب الرّفه نهمتهم»^(٢).

ورافق هذا الفساد في الإدارة كثيرٌ من الكوارث والأوبئة والسنوات العجاف التي عجزت الدولة عن وضع حلول لها، فتركّت الرعيّة تواجه مصيرها وتدبّر أمورها، لتقع فريسة لطائفة من الأزمات التي اتخذت طابعاً اقتصادياً تتمثّل في غلاء الأسعار، ونفاد الأقوات، واحتكار السّلع، وفرض الضرائب، واستئصال الأموال^(٣)، لذا انعدمت الثقة بين المسؤولين الإداريين في الدولة وبين العامّة الذين رأوا في وجود هؤلاء في مناصبهم سبباً رئيسياً لمعاناتهم، فراحوا يتمنون زوالهم، وأن يستبدل الله بهم غيرهم، لعلّ ذلك يغيّر الأحوال. ولم تقف الرعيّة عند مجرّد التمني، وإنما سلكت سبيلاً أخرى هي الانتفاض على الحكّام، فكثر حركات العصيان والتمرد على السّلطة الحاكمة، وكانت هذه الحركات مقرونة بالسلب والنهب. وقد تصدّت الدولة لهذه الحركات، وألحقت العقوبات بالناس^(٤).

وكان الشّعور المصري في العصر المملوكي الأوّل وثيق الصّلة بهذه الحياة التي تعجّ بهذه المشكلات وغيرها، ولا سيّما أن هذا العصر ظهر فيه عدد من الشعراء الذين نشأوا نشأة شعبية، وصدروا في أشعارهم عن قضايا الناس وهمومهم، وعبّروا عن معاناتهم، وصوّروا

كثيراً من شؤون حياتهم ومعاشهم، وربما نظموا الأشعار تلبية لمشاعر دينية أو اجتماعية لديهم. ومن هؤلاء الشعراء البوصيري^(٥).

وثمة عاملان رئيسيان يدفعان إلى دراسة النزعة الاجتماعية لدى البوصيري، الأول يتعلق بالشعر، والثاني يتصل بالشاعر، أمّا ما يتعلق بالشعر فيتمثل في توافره، فهو يستغرق قدراً كبيراً من ديوان الشاعر، بالإضافة إلى تنوع القضايا التي عالجها هذا الشعر، وتصويره لمظاهر حياتية مختلفة، جعلت الناس يحفظونه ويرددونه.

وأما ما يتعلق بالشاعر فيتجلى في سعة تجربته الحياتية وغناها ممّا كان له أثر واضح في شعره، فقد بدأ البوصيري حياته الأولى في صعيد مصر، ونشأ في كنف والده،^(٦) ويبدو أنّ أسرته كانت فقيرة «لذلك اضطرّ إلى السعي في طلب الرزق منذ صغره، فزاوّل كتابة الألواح التي توضع على شواهد القبور»^(٧). ولعلّ ظروف العيش دفعت أسرته إلى الرّحيل إلى القاهرة حيث التحق بمسجد الشيخ عبدالظاهر، وأخذ يحضر على مشايخ عصره، ونال حظاً من العلم أجزى عليه باجزة الفتوى والتدريس.^(٨)

وإذا كان البوصيري قد أفاد من إقامته في القاهرة العلم، فإنه أفاد فيها شيئاً آخر ظهرت أصداؤه واضحة في شعره، فقد شاهد عن كثب بعض الممارسات الخاطئة التي كان يقوم بها بعض العلماء والفقهاء، وعانين تجاوزات الحكّام وانحيازهم إلى فئة دون أخرى من هؤلاء العلماء، فنقم عليهم، وكتب الشعر فيهم يهجوهم وينقدهم.^(٩)

وقد حاول البوصيري في أثناء إقامته في القاهرة أن يحصل على عمل حسابي في أجهزة الدولة، غير أنّه لم يحظ بذلك، وعرض عليه أن يكون محتسباً للقاهرة فرفض لأنه «ليس بينه وبينها (أي الحسبة) نسبة»^(١٠) كما يقول في إحدى قصائده، وأثر أن يهاجر إلى بلبيس لكي يحصل على الوظيفة التي يريد.

هيأت هذه الوظيفة التي تولّاها البوصيري له فرصة التّقلّب بين المدن والقرى التابعة لبلبيس، فشاهد بأمّ عينيه أوضاع الناس في تلك الأنحاء، وما كانوا يعانون منه بسبب جور المستخدمين^(١١)، وهنا بدأ شاعرنا يصطدم مع النظار وكتاب الدواوين من المسلمين والنصارى، ويكشف للناس مفاسدهم وسرقاتهم وحيلهم، ويحثّ الدولة على عزلهم ومصادرة أموالهم، وإيقاع العقوبات عليهم، وفي ذلك يقول المقرئ: «إنّ البوصيري كان يعاني صناعة الكتابة الديوانية، ويتصرّف في المباشرات، وباشر في الشرقية بلبيس، ورمى المباشرين بالأوابد»^(١٢).

أوغر هذا السلوك الذي انتهجه البوصيري صدور أرباب الدواوين والعاملين فيها عليه، ولا سيّما النصارى منهم، فأخذوا يرمونه بالجهل بالكتابة، ويسخرون منه ومن أشعاره،

ويضايقونه^(١٣)، فاضطرَّ إلى العودة إلى القاهرة آملاً أن تتاح له فرصة العمل في دواوين الدولة، بيد أنه لم يفلح في ذلك، فاضطرَّ إلى أن يفتح كتاباً لتحفيظ القرآن الكريم لعله يدرّ عليه قدراً من المال يعيش به. وفي ذلك يقول: (١٤)

قد صارَ كتابي وبيتي من بني غيري وأبنائي كبرجِ حَمَام

ويبدو أن البوصيري لم يكن يكسب من هذا الكتاب ما يكفي أسرته، فأغلقه، ويَمَمَّ وجهه شطر المحلة، ومدح ناظرها، فقرّر له رزقا معلوماً. بيد أنه لم يصبر على ما كان يراه من فساد المستخدمين في المحلة، فراح يصوّب سهام الهجاء إليهم، ويرميهم بأوابده، حتّى ضجروا منه، وتفتّنوا في الكيد له، إلى حدّ أنهم أشاعوا عنه - وقد مرض طويلاً - أنه مات. (١٥)

ومع أن والي المحلة فرض للبوصيري رزقاً معلوماً، إلّا أنه ظلّ يعاني في تلك المدينة من «فاقة عظيمة وضرورة زائدة»^(١٦)، فغادرها إلى سخا والمرض قد أضنى جسمه، فراح يشكو لمدوحه هناك فقره، وعدم احترام الولاة له، وضعف جسمه، وانحطاط قواه. (١٧)

أقام البوصيري في سخا بعض الوقت ليعود منها إلى القاهرة، ويفتح كتابه من جديد، غير أنه ما ليث أن غادر إلى الاسكندرية ليبدأ هناك مرحلة جديدة من حياته هي مرحلة التصوّف، حيث اتّصل بأبي العباس المرسي شيخ الطريقة الشاذليّة آنذاك، «وأخذ عنه علم الحقائق والأسرار.. وعمل القصائد البديعة.. في مدح الرسول صلى الله عليه وسلّم». (١٨)

ولعلّ تحوّل البوصيري إلى التصوّف بعد نقده اللاذع لمستخدمي الدولة، ومعاناته الشديدة من جرّاء ذلك، يشجّع على القول إنّ هذا التصوّف كان هروبا من الحياة، وانسحاباً من المجتمع، وهذا ربّما ينطبق على بعض المتصوّفة آنذاك، ولكنه لا ينطبق على شاعرنا، فقد كان الرّجل منذ بداية «حياته مزوّداً بنفسية تميل إلى التصوّف»^(١٩)، فقد ذكر في شعره أنه يتوق إلى حياة المتصوّفة، ويرغب في أن يكون واحداً منهم لولا هموم عياله، وذلك إذ يقول: (٢٠)

ولو أنّني وحدي لكتّ مريداً في رباطٍ أو عابداً في مغارة

كما أن احتجاج البوصيري على مظاهر الفساد في عصره، ووقوفه في وجه المستخدمين وأرباب الدواوين كما سيتبيّن - كان يصدر عن روح صوفيّة، لأنّ المتصوّفة «يعدّون الفساد والظلم مظهر نشاز في هذا الوجود، لذا أخذوا على عاتقهم تنبيه الأمراء وولاة الأمور ووعظهم»^(٢١). كذلك فإنّ من يقرأ شعر البوصيري يلاحظ أنّه ظلّ مرتبطاً بالواقع، ولم يستغرق في شطحات المتصوّفة ورموزهم ومواجههم، ومن ثمّ كانت هذه المرحلة غنيّة بالشعر الذي يصوّر بعض القضايا الاجتماعية، ولا سيّما مجادلة اليهود والنصارى والدّب عن الدّين الحنيف. كما كثرت في شعره المعاني التي تحتّ على التقوى والزهد والتمسك بأهداب الشريعة، ضارباً للناس في عهده المثل الأعلى من حياة الرسول الكريم، عليه السّلام، داعياً إلى

الافتداء به، والسير على نهجه، فالبوصيري في سلسلة مدائحه قصد إلى «بناء مدينة فاضلة لبنتها الأولى الاستنارة، أي أن هداية الإنسان بالنصيحة والقول الحسن أجدى من قيادته بالقسر، فأخذ يذكر مجد الإسلام في عصر الرسول، والتنسم بروح القرآن، فالاستنارة لا تحدث إلا إذا صرح البوصيري بصاحب المدينة الفاضلة، فجاء إبداعاً في تصوّفه، وإيجاباً في عصره». (٢٢)

المظاهر الاجتماعية التي يصورها شعر البوصيري:

١- الفساد المالي والإداري (نقد المستخدمين):

ثمة روايات وأخبار متعددة تشير إلى استئثار الفساد المالي والإداري في مؤسسات دولة المماليك، فقد انتقد السبكي كتاب الدواوين في عصره، وحذرهم من غضب الله وعذابه، ومن ثورة الشعب ونقمته، وذلك إذ يقول: «فإذا رأيت ديواناً من وزير أو غيره يخرج من بيته بعد أن امتلأ باطنه بالحرام، وهو لا لبس الحرام، وجلس على الحرام، وفتح الدواة الحرام، وأخذ يمدّ الأقلام للحرام، ثم عاقب للحرام، أفليس حقاً إذا رأيت بعد زمن يسير مضروباً بالمقارع، يُطاف به في الأسواق ويجنى عليه!». (٢٣)

ووقف المقرئ طويلاً عند الرشوة، وجعلها أصل الفساد، وبين أن ولاية «الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة، كالوزارة والقضاء ونياية الأقاليم وولاية الحسبة وسائر الأعمال، بحيث لا يمكن التوصل إلى شيء منها إلا بالمال الجزيل، فتخطى لأجل ذلك كل جاهل ومفسد وظالم وباغ إلى ما لم يكن يؤمله من الأعمال الجليلة، والولايات العظيمة لتوصله بأحد حواشي السلطان...» (٢٤)

وقد تضمن شعر البوصيري نقداً لاذعاً للمستخدمين، وحديثاً مفصلاً عن تفشّي الخيانة والسرقة بينهم، ووصفاً مطوّلاً لأخلاقهم وأساليبهم في استصفاء الأموال وسرقتها. من ذلك قصيدته النونية التي تعدّ من أشهر أوابده، ومطلعها: (٢٥)

تكلت طوائف المستخدمين
فلم أر فيهم رجلاً أميناً

وحديث البوصيري في هذه القصيدة وغيرها عن المستخدمين حديث خبير، فقد ذكر أنه زاملهم، وعاب فسادهم، ورأى اختلاسهم وخيانتهم، وفي ذلك يقول:

فخذ أخبارهم منّي شفاهاً
مع التجرب من عمري سنينا
فقد عاشرتهم ولبثت فيهم

ومع أن النزعة الذاتية واضحة في القصيدة، غير أنها تعبّر بقوة عن هموم الجماعة وآلامها. فقد عرّض الشاعر بالمستخدمين في (بليس)، وسمّى بعضهم، وذكر جانباً من أفعالهم، ونعتهم بأنهم لصوص سرقوا الرعية، ونهبوا ثرواتها، وأخذوا يتنعمون بها، وينفقونها على ملاذهم وملاهيهم، يقول:

حوتٌ بلبيسٍ طائفةً لصوصاً
فُرِجِي والصَّفِيّ وصاحبيه
فَكُتَابُ الشَّمَالِ هُمْ جميعاً
وقد سَرَقُوا الغلالَ وما عَلِمْنَا
وَجُلُّ النَّاسِ خَوَانٌ ولكن
ولولا ذاك ما لَبَسُوا حَرِيراً
ولا رَبُّوا مِنَ المردانِ قوماً
وقد طَلَعَتْ لِبَعْضِهِمْ ذُقُون
عَدَلْتُ بَواحدٍ مِنْهُمْ مئِيناً
أَبَا يَقْطُونِ والنَّشْوِ السَّمِينِ
فَلا صَحَبَتْ شَمالَهُم اليَمِينِ
كما سَرَقَتْ بَنُو سِيفِ الجُرُونِ
أَناسٌ مِنْهُمْ لا يَسْتَرُونِ
ولا شَرَبُوا خَمُورَ الأَنْدَرِينِ
كَأَغْصانٍ يَقْمَنْ وَيَنْحَنِينِ
ولكنْ بَعْدَ ما نَتَقُوا ذُقُونِ

ويدعو الشاعر إلى عدم الثقة بحسابات هؤلاء المستخدمين لأنها غير صحيحة، بل إنهم يخون بعضهم بعضاً، ولا يثق أحدهم بالآخر، لأنَّهم كلٌّ واحدٍ منهم أن يسلب لنفسه ما يستطيع من أموال:

وَلَا تَحْسَبْ حِسَابَهُمْ صَحيحاً
أَلَمْ تَرَ بَعْضُهُمْ قَدْ خانَ بَعْضاً
فإنَّ بَخْصِمِهِ الدَّاءُ الدَّفِينِ
وعَنْ فِعْلِ الصَّفَا سَلَّ المَكِينِ

ويتحدث البوصيري بأسى عن المفارقات في توزيع الثروة في مصر، فالمستخدمون وكتاب الدواوين ينعمون بها، على حين يُحرم منها جند مصر الذين ينافحون عنها، ويبدلون أرواحهم لها، ويصدّون الأعداء عن حرمانها:

أَمْوَلانَا الوَزِيرَ غَفَلَتْ عَمَّا
أُتْطَلِقَ جامِكِيَّاتٍ لِقُومِ
فَلا تُهْمِلْ أُمُورَ المَلِكِ حَتَّى
فَهَلْ مَلَكُوا بِأَقْلَامِ قِلَاعِ
وَمَنْ قَتَلَ الفَرَنْجَ أَشَدَّ قَتْلِ
وَمَنْ خاضَ الهَوَاجِرَ وَهُوَ ظامٍ
ولا قُوا المَوْتَ دُونَ حَرِيمِ مِصرِ
ولَمْ تُؤْخَذْ كَمَا أَخَذَتْ دِمَشْقُ
وَمَا أَحَدٌ أَحَقُّ بِأَخْذِ مالِ
وَمَنْ لَمْ يَدْخُرْ فَرَساً جَواداً
فَبَعْدَ المَوْتِ قَلَّ لِي أيُّ شَيْءِ
يَهُمُّ مِنَ الكِلابِ الخائِنِينِ
وَتَتَفَقَّ قِيءٌ قَوْمَ آخِرِينِ
يَبْذُلُ الجَنْدُ لِلْمَتَعَمِّينِ
وَهَلْ فَتَحُوا بِأَوْزاقِ حُصُونِ
وَمَنْ أَسَرَ الفَرَنْسِيَّ اللُّعِينِ
إِلَى أَنْ أَوْرَثَ التَّتَرَ المُنُونِ
وصانُوا المَالَ مِنْهُمْ والبَنِينِ
ولا حُصِرَتْ كَميًّا فارقِينِ
مِنْ الأَتراكِ والمَتَجَنِّدِينِ
لِوِاقِعَةٍ ولا سَيْفِ ثَمِينِ
لَهُ فِي بَيْتِ مالِ المُسْلِمِينِ

ويعجب الشاعر من أفعال المستخدمين، واستغلالهم وظائفهم لجرّ الأموال إليهم، ويذكرهم بما كان يسير عليه الصحابة من انتهاج العدل وتحريّ الأمانة، لعلمهم - أي المستخدمين - يسلكون مسلكهم، وينحون منحاهم. يقول:

إذا أَمْنَاؤُنَا قَبِلُوا الْهَدَايَا وَصَارُوا يَتَجَرَّوْنَ وَيَزْرَعُونَ
فَلَمْ لَا شَاطَرُوا فِيمَا اسْتَفَادُوا كَمَا كَانَ الصَّحَابَةُ يَفْعَلُونَ!
وَكُلُّهُمْ عَلَى مَالِ الرِّعَايَا وَمَالِ رِعَايَتِهِمْ يَتَحِيلُونَ

ويحمل البوصيري على الفاسدين من القضاة والفقهاء ويصوّر خطرهم على أموال مصر وثرواتها، وكيف أنّهم يخادعون الناس، فيجعلون الحقّ باطلاً والباطل حقاً، تحقيقاً لمآربهم وأهدافهم الشخصية. يقول:

تَحَيَّلَتِ الْقَضَاةُ فَخَانَ كُلُّ أَمَانَتِهِ وَسَمَّوْهُ الْأَمِينَا
وَكَمْ جَعَلَ الْفَقِيهُ الْعَدْلَ ظُلُمًا وَصَيَّرَ بَاطِلًا حَقًّا مَبِينَا
وَمَا أَخْشَى عَلَى أَمْوَالِ مِصْرَ سِوَى مَنْ مَعَشَرَ يَتَأَوَّلُونَا

ويُضَمِّن البوصيري قصيدته دعوة قويّة إلى تأديب المستخدمين، وانتزاع الأموال من أيديهم، مبيناً أنّه لا مجال للتهاون معهم، أو قبول أعذارهم بعد أن ثبتت خيانتهم:

فَلَا تَقْبَلْ مِنَ النَّوَابِ عَذْرًا وَلَا النَّظَارِ فِيمَا يَهْمِلُونَا
فَلَا تَسْتَأْصِلِ الْأَمْوَالَ حَتَّى يَكُونُوا كُلُّهُمْ مَتَوَاطِئِنَا
وَالَا أَيْ مُنْفَعَةً بِقَوْمٍ إِذَا اسْتَحْفَظْتَهُمْ لَا يَحْفَظُونَا
أَلَيْسَ الْآخِذُونَ بِغَيْرِ حَقٍّ لِمَا فَوْقَ الْكِفَايَةِ خَائِنِينَا
وَأَنَّ الْكَانِزِينَ الْمَالَ مِنْهُمْ أَوْلَئِكَ لَمْ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَا

ويكشف الشاعر النّقاب عن بعض حيل هؤلاء المستخدمين، إذ تظاهروا بالزّهد والتقوى، وأشاعوا عن أنفسهم الصّلاح والعفاف، فَخَدَع الناس بذلك عن خيانتهم وفسادهم، يقول:

تَوَرَّعَ مَعَشَرَ مِنْهُمْ وَعَدُّوا مِنَ الزَّهَادِ وَالْمَتَوَرِّعِينََا
وَقِيلَ لَهُمْ دَعَاءُ مُسْتَجَابٌ وَقَدْ مَلَأُوا مِنَ السُّعْتِ الْبُطُونَا
فَلَا تَقْبَلْ عَفَافَ الْمَرْءِ حَتَّى تَرَى أَتْبَاعَهُ مَتَعَفِّقِينََا

ويتحدث البوصيري عن معاناة (العريان) من أحد العمّال (ابن أبي مليح)، حتّى إنهم تركوا منازلهم وهجروا ديارهم فراراً من عسفه وجوره، راسماً صورا معبّرة لتسلط هذا العامل على الناس، وصراعه مع غيره من المستخدمين الآخرين على نهب الأموال. يقول:

فإنَّ قَطَائِعَ العَرِيَّانِ صَارَتْ
فَوَلِيَّ أَمْرَهَا ابْنُ أَبِي مَلِيحٍ
وَنَاطَحَ وَهُوَ أَقْرَعُ كُلِّ كَبْشٍ
وَقَدْ شَهِدَتْ بِذَا هُلْبَا سُوَيْدٍ
وَكَمْ رَاعَتْ لِبَغَاتِهِ شِمَالاً
وَلَوْ لَا ذَاكَ مَا وَلَّوْا فِرَاراً
لِعَمَّالِهَا وَمَشَارِفِينَا
فَأَصْبَحَ لَا هَزِيلَ وَلَا سَمِينَا
فَكَيْفَ وَقَدْ أَصَابَ لَهُ قَرُونَا
وَهُلْبَا بَعْجَةً حَرِيّاً زَبُونَا
وَكَمْ رَاعَتْ لِبَغَاتِهِ يَمِينَا
مِنَ الْبَحْرِ الْكَبِيرِ لَطُورِ سِينَا

ويذكر الشاعر نموذجاً آخر لهؤلاء المستخدمين هو (ابن قطيعة)، ويبين أن تعدياته وانتهاكاته تجاوزت الحد، فنهب الأموال، وسلب الغلال، وروّع الأهليين، وجعل وكده أن يسرق ما يستطيع أن يسرق من الثروة ويكنزها في بيته، بينما لم يكن له من مطلب من قبل إلا خسيس المال. يقول:

وما ابن قطيعة إلا شريك
أغارَ على قرى فأقوس منه
وجاسَ خلالها طولا وعرضا
فسلَ أذنين والبيروق عنه
فقد نسف التلال الحمر نسفاً
وصيرَ عينها حملاً ولكن
وأصبح شغلُه تحصيل ثبرٍ
لهم في كل ما يتخطفونا
بجور يمنع النوم الجفونا
وغادرَ عاليها منها حزونا
ومنزَلَ حاتم وسل العرينا
ولم يترك بعرضتها جرونا
لمنزله وغلتها خزينا
وكانت راؤه من قبل نونا

ويصور البوصيري استشرَاء الفساد في الولاية، ويذكر مستخدماً فيها اسمه موسى، فيقرنه بقصة سيدنا موسى عليه السلام، ولكنه يعكس الأوضاع، فيجعل موسى هذا في مقام فرعون لسوء عمله. ولم يكن الأمر مقصوراً على موسى، فالعاملون عنده كلهم خائنون يشهدون الزور، وكذلك كتاب الدرّج الذين لا يصدقون فيما يكتبون. يقول:

وقدّمه الذين لهم وُصولٌ
وفي دار الولاية أيّ نهب
وما فرعون فيها غير موسى
إذا ألقى بها موسى عصاه
وفيها عصبة لا خير فيهم
وشاهداهم إذا اتهموا يؤدّي
فتممّ نقصه صلة اللذينا
فليتك لو نهبت الناهيينا
يسوم المسلمين أذى وهونا
تلقت القوافل والسقينا
على كل الورى يتعصبونا
عن الكل الشهادة واليمينا

وَمَنْ يَسْتَعِطِ بِالْأَقْلَامِ رِزْقًا تَجِدْهُ عَلَى أَمَانَتِهِ ضَنِيًّا
وَلَسْتُ مَبْرُئًا كِتَابَ دَرْجٍ إِذَا اتَّهَمْتُ لَدَيَّ النَّاسِخُونَ

وطائفة أخرى من هؤلاء المستخدمين يعرض لها البوصيري، وهم المشارفون الذين يرسلهم السلطان مع أرباب الدواوين ليعاينوا تصرفاتهم، ويراقبوا أعمالهم، ولكنهم لم يكونوا أحسن حالا منهم، فقد انحازوا إليهم، وشاركوهم في الانقضاء على أموال العباد:

وَجَنْ مَشَارِفٍ بُعِثُوا شُهودًا فَإِنَّ مِنَ الْوُثُوقِ بِهِمْ جُنُونًا
وَمَنْ أَلَفَ الْخِيَانَةَ كَيْفَ يُرْجَى لَهُ أَنْ يَحْفَظَ لِلصَّ الْخَوْنَ!!

ويتكئ الشاعر على المفارقة المثيرة للسخرية المريرة حين يتحدث عن استدعاء السلطان بعض هؤلاء المستخدمين للتحقيق معهم.. فاستبشر الناس خيراً، إلا أن هذا الاستبشار لم يطل، فقد فوجئوا بعودة المستخدمين إلى وظائفهم معززين مكرمين، ليستأنفوا الظلم والعسف، ويجهزوا «ولاة الحرب ليلاً» لسلب أموال الناس ونهبها:

وَلَمَّا أَنْ دُعُوا لِلْبَابِ قُلْنَا بِأَنَّ الْقَوْمَ لَا يَتَخَلَّصُونَا
وَكَانُوا قَدْ مَضُوا وَهُمْ عُرَاةٌ فَجَاؤُوا بَعْدَ ذَلِكَ مُكْتَسِنَا
وَصَارُوا يَشْكُرُونَ السَّجْنَ حَتَّى تَمْنَى النَّاسُ لَوْ سَكَنُوا السَّجُونَ
فَقُلْتُ لَعَلَّكُمْ فِيهِ وَجَدْتُمْ بَطُولَ مَقَامِكُمْ مَالاً دَفِينَا

تلك هي الآبدة الأولى للبوصيري، وقد عرض فيها «من كل واقعة فنونا» كما يقول، بأسلوب راوح فيه بين السرد التقريري والسخرية الهادئة. والقصيدة على الرغم من طولها تبدو متماسكة، وهي تستمد تماسكها من صدق اللهجة، وقوة الانفعال، وبساطة العرض والتصوير. وثمة آبدة ثانية قالها البوصيري يهجو عامل أسوان، مطلعها (٢٦):

انظُرْ بِحَقِّكَ فِي أَمْرِ الدَّوَاوِينِ فَالْكَلَّ قَدْ غَيَّرُوا وَضَعَ الْقَوَانِينِ

وقد دعا الشاعر في هذه القصيدة أولي الأمر إلى الاهتمام بشؤون الدواوين، وضبط أمورها بعد أن تطرق لها الخلل والفساد على أيدي الكتّاب الخائنين الذين عيّنوا بالقوانين، وحرفوها عن مواضعها لتخدم أهدافهم، مبيّناً أن رغبة هؤلاء الكتّاب في تولي المناصب قد أخرجتهم عن جادة الدين، وجعلتهم يقدمون الرشوة للوصول إليها. يقول:

لَمْ يَبْقَ شَيْءٌ عَلَى مَا كُنْتَ تَعْهَدُ إِلَّا تَغْيِيرُ مَنْ عَالَ إِلَى دُونِ
الكَاتِبُونَ وَلَيْسُوا بِالْكَرَامِ فَمَا مِنْهُمْ عَلَى الْمَالِ إِنْسَانٌ بِمَأْمُونِ

والكلّ جمعاً ببذل المال قد خدموا
فهم على الظن لا التحقيق بذلهم
وما سمعنا بهذا غير ذا الحين
وما تحقق أمر مثل مظنون
نالوا مناصب في الدنيا وأخرجهم
حب المناصب في الدنيا على الدين

ويميل الشاعر إلى المبالغة في التصوير بقصد التأثير، حين يتحدث عن تهاافت كتاب الدواوين على جمع الأموال بأية وسيلة ومن أي مكان، فهم يتهافتون «عليها كالذبابين»، ولو استطاعوا أن يفرضوا الضرائب على الطيور لقاء طيرانها في الهواء لفعلوا، ولو استطاعوا أن يصعدوا إلى السماء لمسحها وجني الأموال منها لصعدوا. يقول:

قد طالما طردوا عنها وما انطردوا
ضمان ربح بطير فوق طائرهم
إلا وقوم عليها كالذبابين
يطير والريح شاع بمضمون
لو أمكن القوم وزن المال لاتخذوا
له الموازين من بعد القباين
ومسحهم للسموات العلى افعلوا
فيها كما يفعل المساح للطين

ويكشف الشاعر عما تتطوي عليه نفوس هؤلاء الكتاب من فساد وشرور، وكيف أنهم حاربوا الناس في أرزاقهم، ونازعوهم في أموالهم، واستولوا عليها بصنوف الأكاذيب والحيل. يقول:

وطاعنا الناس بالأقلام واستلبوا
لهم مواقف في حرب الشرور كما
منهم بها كل معلوم ومكنون
حرب البسوس وحرب يوم صفين
لا يكتبون وصولات على جهة
مفصلات بأسماء وتبين
إلا يقولون فيما يكتبون له
من الحقوق وماذا وقت تعيين
هم اللصوص ومن أقلامهم عتل
بهايسفون أموال السلاطين

ويمضي الشاعر في قصيدته مفصلاً القول في وصف البيذخ الذي يعيش فيه هؤلاء المستخدمون، والأموال الطائلة التي ينفقونها على صنوف الملاذ والملاهي، داعياً السلطان المملوكي إلى كشف البلاء عن الناس، ودفع أذى المستخدمين عنهم. يقول:

وكل ذلك مصروف ومصرفهم
وللشراب وتببيت الخطاء به
للشيخ يوسف أبي هبص بن لطمين
يجلو العقار بأجناس الرياحين
وللعلوق وأنواع الفسوق معاً
وللخروق الكثيرات التلاوين
وللبغال الوطيات الركاب ترى
غلمانهم خلفهم فوق البراذين
وللمناديل في أوساط من ملكوا
وللمناطق فيها والهمالين



ولستُ أحصرُ ألواناً لأطعمة
فقل لسلطان مصر والشام معا
تفننَ القومُ فيها كلَّ تفننٍ
يا قاهراً غير مخفيِّ البراهينِ
اكشف بنفسك أسواناً ومَنْ معها
مِن الصعيدِ بلا قوم مساكينِ

ويبدو من قصيدة أخرى قالها البوصيري أنَّ الأيدي قد امتدَّت إلى الأموال التي كانت تتفق على المساجد، فقد قال على لسان مسجد الشيخ عبدالظاهر قصيدة وجهها إلى الملك الصالح، وكان قد أخرج ثلاثة آلاف دينار صدقة على طلبة المدارس، وفوض أمرها إلى الفقيه بهاء الدين المسردِّي، ففوض أمرها إلى ولده الشهاب. وقد صور الشاعر المسجد يقف بين يدي الملك الصالح متظلماً، شاكياً إليه حرمانه من الأموال المنفقة، متسائلاً باستغراب عن الأسباب التي حددت بالقائمين على الأموال أن يحظروها عليه دون غيره من المساجد، لامزاً صدق أولئك القائمين، وحسن ولائهم لدولة السلطان. يقول: (٢٧)

ليت شعري ما مقتضى حرمانني
أتراني لا أستحقُّ لكوني
دون غيري، والإلف للرحمن
جامعاً شمل قارئ القرآن
بي يُدعى لدولة السلطان
وبأي الأسباب يُعطى مكانٌ
صدقات السلطان دون مكان

ويستغلُّ البوصيري معرفته بالحساب في مناقشة ابن البهاء المسردِّي وتفنيد مزاعمه حول نقصان الأموال، وأنها لم تكف المساجد، مؤكداً أنها قد زادت، وأن لديه الأدلة على ذلك، إلا أن المسردِّي وأتباعه سرقوها:

زعم ابن البهاء أنَّ عطايا الملوك الصالح العظيم الشأن
ما كفت سائر المدارس أوضُّمَّ إليها من مالها درهمان
ولعمري لقد توفّر نصفُ المال منها وراح في النسيان
إن أكن ما أقوله منه دعوى فاطلبوني عليه بالبرهان
أو ما كان عدّة الفقهاء ألفتُ فقيه من بعدها مئتان
فاحسبوها بمقتضى الصّرف دينا رأو ربعا للجلّة الأعيان
تجدوها ألفاً وخمسمئات غير ما خصّها من النقصان
والبخاس الذي أضيف إلى النفقة، والبخس من يد الوزان

وينتهي البوصيري من هذه الأدلة إلى القدح في أمانة المسردِّي، واتهامه بسرقة الأموال، ورميه بالخيانة وضعف الإيمان، وأن ذلك شاع عنه بين الناس، فامتدت إليه ألسنتهم بالذم

والتعجـريـح:

أنا لا أنسبُ البهَاءَ على ذ لك إلا لقلَّة الإيـمانِ
هو ولى أهل الخيانة فيها وتولى الجواد كالخوَانِ
كلما جاءت الدنانير ينقُضُ عليها البهَاءُ كالشيطانِ
مدَّ فيها يد الخيانة ما أمتدَّ إليه بالذمِّ كلُّ لسانِ

ويصوِّر الشاعـر تبدُّل أحوال المدارس في عصره، وانتشار سرقات أموالها، وتعرُّض طلبتها لألوان الهوان على أيدي المسرديِّ وأمثاله، منهياً قصيدته ببـيت يكثف فيه بأسلوب تهكميِّ جرأتهم على الأموال والأرزاق المخصَّصة للطلبة:

فلقد حلَّ في المدارس في الأخذِ كثرة الأذى والهوانِ
وأزيلت بالسبِّ أعراضُ من فيها فما قام الربُّجُ بالخسرانِ
كيف أنسى قول الشهاب جهاراً قبح الله كلَّ ذي طيلسانِ
أه واضيعةً المساكين إن وُلِّيَ أمر الطعَامِ في رمضانِ

وفي ديوان البوصيريِّ قصيدة أخرى ينتقد فيها عمل أحد المحتسبين في القاهرة، وقد قالها وقد أمر - أي الشاعـر - بولاية الحسبة في تلك المدينة، فامتنع عنها. والقصيدة مطلعها: (٢٨)

لا تظلموني وتظلموا الحسبة فليس بيني وبينها نسبة

والقصيدة تستهدف النقد عن طريق الإضحاك، فقد عرض الشاعر فيها بأسلوب فكاهي ساخر صوراً متعدِّدة لسلوك ذلك المحتسب، والأعمال التي كان يقوم بها في أثناء (حملاته) التفتيشية في أسواق القاهرة. وقد تفنَّن الشاعر في عرض الأساليب التي سخر بها من هذا المحتسب، فالناس من شدة جشع هذا المحتسب وتكالبه على الأموال أخذوا ينبزونه بـ (أبي حبة):

فهو أبو حبة كما ذكروا لا يتغاضى للناس في حبة

وهو إذا ما شرع في زجرِ الناس ورَدِّعِهِم انفعِل، وغضب، وعلا صوته، وانتفخت أوداجه، وبدا في هيئة تثير الضحك:

أجلِسُ والنَّاسُ يُهرعون إلى فإلي في السُّوقُ عُصبة عُصبة
أوجعُ زيدا ضرباً وأشبعه سباً كأني مُرقص الدُّبَّة
ويُكسِبُ الغيظُ مقلتي وخديَّ احمراراً كزامرِ القربة

وبأسلوب تهكمي لاذع يصفه الشاعر موكب هذا المحتسب (الذي جاء من دمشق في علبة)، وهو يتجول في أسواق القاهرة يتبعه (غلمانة) الذين يحملون العصي لتخويف الناس وإرهابهم، فيستثير هذا المشهد الأطفال، فيتبعون هذا الموكب يضحكون ويهتفون:

يمشي بها والصغار تُشده
أُميرُنَا زارنا بلا ركبهِ
وما يزال الفلام يتبعُهُ
بدرّةٍ مثل رأسهِ صلبُهُ
وهو يقول: افسحوا لمحتسبٍ
قد جاءكم من دمشق في عُلْبِهِ

ومشهد آخر يرسمه البوصيري لهذا المحتسب، ولكنه هذه المرة في المقبرة، إذ حاول أن يمنع النساء من زيارة القبور لأنهن لم يرشينه، فوثبن عليه وضربنه، وتعالى صياح الجميع:

وساءني ما جرى عليه من النسبِ
فلا تسألني فما حضرتُ لها
وكونتُ يومَ الخميس في التربة
لكن سمعتُ الصياحَ والنُدْبَةَ

ويتحدث الشاعر عن الثروة الضخمة التي جمعها هذا المحتسب الذي يأمر الناس بالصلاح ولا يصلح نفسه، وكيف أنه تكبر، (وخايل الزمان)، ورام أن (يحاكي الأسود):

ما بأله خايل الزمان بها
كم كان لليل فيك من صَبّة
حصل مالاً جمّاً وعدّه
من أصل مال الزكاة والوهبة
فطار برغوئته لخفتته
ورام يحكي الأسود في الوثبة

ويقرر الشاعر أن ما شاهده من أمر هذا المحتسب هو الذي زهده في قبول الوظيفة، بالإضافة إلى أنها مسؤولية ثقيلة وليست (لعبة):

فالحمد لله فاحمدوه معي
على خلاصي من هذه النسبهِ
اليومَ حققت أن أمرك بالحسبِ
لي ليس كان لي لُعبُهُ

ومن القصائد التي لمز فيها البوصيري المستخدمين بأسلوب فكاهي ساخر قصيدة قالها على لسان «المملوكة حمارته». وكان ناظر الشرقيّة قد استعارها منه، وأبى أن يعيدها إليه (٢٩) والقصيدة مطلعها: (٣٠)

يا أيّها السيّد الذي شهدت
ألفاظه لي بأنّه فاضلٌ

وتقوم السخرية في هذه القصيدة على عدّة عناصر، منها أنها جاءت على لسان «الحمارة»، وأن هذه «الحمارة» راحت تحاور الناظر وتجادله كي يعيدها إلى «سيدها»، وأن هذه المحاورة تضمنت طائفة من الصور والتعابير اللاذعة التي تشي برفض «المملوكة» هذا السلب، واحتجاجها عليه. يقول:

حاشاك من أن أجوع في بلد
ألم تكن قد أخذت عارية
طال بي شوقي إلى وطني
وبُغيتي أن أكون سائبة
لا تطمعوا أن أكون عندكم
وبعد هذا فما يحل لكم
وأنت بالرزق فيه لي كافل
من شرطها أن ترد في العاجل
والشوق داء، لا دقت، قاتل
من بلدي في جوانب الساجل
فذاك ما لا يرومه العاقل
ملكى فاني من سيدي حامل

ولم يكن حديث البوصيري عن مظاهر الفساد المالي والإداري مقصوراً على انتقاد الأوضاع، وإنما سلك في الإصلاح مسلكاً آخر يقوم على الوعظ والإرشاد، وتصوير ما ينبغي أن يكون عليه مستخدمو الدولة من الاستقامة والأمانة، وذلك بضرب الأمثال لهم من مسلك النبي عليه السلام، والصحابة الكرام في سياسة الرعية، والانصراف عن الدنيا، والزهد فيها. (٣١).

٢ - الفقر:

نجم عن هذا الاضطراب المالي والإداري، والتضييق على الناس في تحصيل الأموال أن عانت الرعية من الفقر وقلة ذات اليد، وأصبحت عاجزة عن ممارسة أعمالها اليومية، ورافق ذلك غلاء الأسعار، وارتفاع أثمان السلع، وفي ذلك يقول المقريري: «ومع أن الغلال معظمها لأهل الدولة.. وأرباب السيوف الذين تزايدت في اللذات رغبتهم، وعظم في احتجار أسباب الرفه نهمتهم استمر السعر مرتفعاً لا يرجى انحطاطه، فخرّب بما ذكرنا معظم القرى، وتعطلت أكثر الأراضي من الزراعة، فقلت الغلال وغيرها ممّا تخرجه الأرض لموت أكثر الفلاحين، وتشردهم في البلاد من شدة السنين، وهلاك الدواب، ولعجز الكثير من أرباب الأراضي عن ازديادها لغلو البذور. وقد أشرف الإقليم الأجل.. على البوار والدمار» (٣٢)

وقد شارك البوصيري شعراء عصره في الحديث عن ظاهرة الفقر التي تفشت بين الأوساط الشعبية في المجتمع المصري في العصر المملوكي الأول، (٣٣) إذ استفرغ قسماً من شعره في وصف فقره وإملاقه، وتعاسته وسوء حظه، وما كان يعيش فيه من حاجة متصلة، وحرمان دائم، وعجز عن توفير الرزق لزوجته وأبنائه دون أن يجد أحداً يمدّ يد المساعدة والعون له. فها هوذا يشكو علته التي أقعدته عن السعي، فبات محتاجاً لا يملك ما ينفقه على أطفاله الذين أثقلت مطالبهم ظهره، في الوقت الذي تلح فيه عليه زوجته بأن يعمل لكسب الرزق، وتوفير ما تحتاج إليه أسرته: (٣٤)

مَنْ لشيخ ذي علة وعيال
ثقلت ظهره بغير ظهير

أثقلوه وكلفوه مسيراً ومن المستحيل سَيْرُ ثبير
فَهَوَّوْ فِي قَيْدِهِمْ يُذَادُ مِنَ السَّيِّئِ لِيُتَحْصَلَ قُوَّتُهُمْ كَالْأَسِيرِ
وَدَعَتِ أُمَّهُمْ عَلَيَّ وَلَجَّتْ فِي عَتْوٍ مِنْ كِبَرَتِي وَنَفُورِ
ويرسم الشاعر صورة مؤثرة لأطفاله الصغار الذين يتضورون جوعاً، فإذا ما رأوا شيئاً من
طعام انقضوا عليه انقضاضاً، وأخذ يزاحم بعضهم بعضاً:

وَكَزُّ غَبِ الْقَطَا وَرَائِي فِرَاحٌ مِنْ إِنَاثٍ أَعُولُهُمْ وَذُكُورِ
يَتَعَاوَوْنَ كَالذَّنَابِ وَيَنْقَضُونَ مِنْ فَرَطِ جُوعِهِمْ كَالنَّسُورِ
أما ابنته فخطبت منذ فترة طويلة، ولكنَّ عدم قدرته على توفير المال لجهازها أخر زفافها:
وَفَتَاةٌ مَا جُهِّزَتْ بِجِهَازٍ خُطِبَتْ لِلدَّخُولِ بَعْدَ شُهُورِ
وَأَقْتَضَتْ الشَّوَارَ بَغِيًّا عَلَى مَنْ بَيْتُهُ لَيْسَ فِيهِ غَيْرُ حَصِيرِ
ويأسى الشاعر لازدياء بعض الولاة له، وعدم تقديرهم لشعره، معبراً عن أحزانه وآلامه
لهجر أصحابه له، وتخليهم عنه، وبخلهم عليه، وكأنهم لا يعرفونه:

وَأَذْرَتْنِي بَعْضُ الْوَلَاةِ وَقَدْ أَصْبَحَ شِعْرِي فِيهِمْ كَخُبْزِ الشَّعِيرِ
وَرَفَاقِي فِي خِدْمَةِ طَوْلِ عَمْرِي رَفَقَتِي فِي الْحِرَانِ مِثْلُ الْحَمِيرِ
كَلَّمَا رَمَتْ أُنْسَهُمْ ضَرَبُوا مِنْ وَحْشَةٍ بَيْنَهُمْ وَبَيْنِي بِسُورِ
وَأَبَوْا أَنْ يُسَاعِدُونِي عَلَى قُوِّ تِ عِيَالِي بَخْلًا بِكَيْلِ بَعِيرِ
ويتحدث البوصيري في قصيدة أخرى عن إقفار بيته، وتعطُّل أدوات المأكل والمشرب فيه،
حتى غدا هذا البيت خالياً ممَّا هو ضروري لاستمرار الحياة. يقول: (٣٥)

إِنَّ بَيْتِي يَقُولُ قَدْ طَالَ عَهْدِي بِدُخُولِ التَّلَيسِ لِي وَالشَّكَارَةِ
وَطَعَامٍ قَدْ كَانَ يَعْهَدُهُ النَّاسُ سُبُوحًا لِيهِمْ وَلِلسَّيَّارَةِ
فَالْكَوَانِينَ مَا تُعَابُ مِنَ الْبَرِّ دِ بَطِّيَاخَةٍ وَلَا شَكَّارَةِ
لَا بِسَاطٍ وَلَا حَصِيرٍ بِدِهْلِي زِي وَلَا مَجْلِسِي وَلَا طَيَّارَةِ
لَيْسَ ذَا حَالٍ مَنْ يَرِيدُ حَيَاةً لِعِيَالٍ وَلَا لِبَيْتٍ عِمَارَةِ

ويبدو أنَّ زوجة البوصيري لم تكن لتتحمل العيش معه تحت وطأة الفقر، وقد تحدت
الشاعر عن هذه الزوجة في غير ما موضع من شعره، وصوِّر تبرُّمها به، وتضجُّرها من العيش
معه. من ذلك قصيدة أرسلها إلى بهاء الدين بن علي بن حنا شكاً له فيها حاله، وكثرة أبنائه،
وحرمانهم من الطعام والشراب، فصاروا عبدة لمن يراهم: (٣٦)

إليك أشكو حالنا إننا	عائلة في غاية الكثرة
أحدثُ المولى الحديثَ الذي	جرى عليهم بالخيطة والإبرة
صاموا مع الناس ولكنهم	كانوا لمن يبصرهم عبرة
إن شربوا فالبئر زيرٌ لهم	ما برحت، والشربة الجرّة
لهم من الخبيزِ مسلوقةٌ	في كلّ يوم تشبه النشرة
أقول مهما اجتمعوا حولها	تنزهوا في الماء والخضرة

ومع أنّ الروح التهكمية تغلب على كثير من مقاطع القصيدة، إلا أنّ البوصيريّ غالبه الحزن والأسى وهو يتحدث عن أطفاله الذين يستقبلون العيد وهو لا يملك شيئاً يقدمه لهم ليدخل الفرحة في قلوبهم. ثم ينقل الشاعر صوراً مؤثرة لهؤلاء الأطفال الذين يرون أبناء الأغنياء يحملون (الكعك) في أيديهم، فتشخص إليه أبصارهم، ويرسلون الشهقة تتبعها زفرة. وهنا لا يجد الشاعر إلا الشكوى والحسرة، فيجتمع حوله أبناؤه يسألونه عن سبب حاجتهم وفقرهم، فلا يجد جواباً. يقول:

وأقبل العيد وما عندهم	قمح ولا خبز ولا فطره
فأرحمهم إن أبصروا كعكة	في يد طفل أو رأوا ثمرة
تشخص أبصارهم نحوها	بشهقة تتبعها زفرة
فكم أقاسي منهم لوعة	وكم أقاسي منهم حسرة
كم قائل يا أبتا منهم	قطعت عنا الخبز في كره
ما صبرت تأتينا بفلس ولا	بدرهم ورق ولا نُقره
وأنت في خدمة قوم فهل	تخدمهم يا أبتا سُخره

ويُفرد البوصيريّ الشريحة الأخيرة من قصيدته لزوجته، فيسوق بأسلوب فكاهيٍ ساخر حواراً جرى بينها وبين أختها، وكيف أنّ هذه الأخت هوّنت قدر الشاعر في عين زوجته، وحرّضتها على مخالفته وعصيان أمره، والمطالبة بأن يوفر لها ما تحتاج من أسباب العيش، فتعود الزوجة إلى بيتها فينشب عراك بينها وبين زوجها، ولم يستطع هذا الزوج أن يتخلص منه إلا بالبكاء والضراعة:

ويومَ زارت أمهم أختها	والأخت في الغيرة كالضرة
وأقبلت تشكو لها حالها	وصبرها مني على العسرة

قالت لها كيف تكون النسا
قومي اطلبي حَقَّكِ منه بلا
وان تأبى فخذِي ذَقْنَه
قالت لها ما عادتِي هكذا
أخاف إن كَلَّمْتَه كَلِمَةً
فهَوَّنْتَ قَدْرِي فِي نَفْسِهَا
فاستَقْبَلْتِي فَتَهَدَّدْتَهَا
وبَاتَت الْفِتْنَةَ مَا بَيْنَنَا
وما رَأَى الْعَبْدَ لَهُ مَخْلَصًا

كذا مع الأزواج يا غِرَّة
تخلّف منك ولا فِتْرَةَ
ثم انتفِهَا شَعْرَةَ شَعْرَةَ
فإن زُوجِي عنده ضَجْرَةَ
طلّقْني. قالت لها: بَعْرَةَ
فجاءت الزُوجَةَ محترّة
فاستَقْبَلت رَأْسِي بِأَجْرَةَ
من أوّل اللّيل إلى بكرّة
إلا وما في عَيْنَه قَطْرَةَ

ويتذمّر البوصيريّ من هذه الزوجة في قصيدة أخرى وصفها فيها بأنّها «بليّة»، وأنّها اتخذت من فقره وعجزه حجة عليه، ووسيلة لتحقيقه والإزراء به. ويتبرّم الشاعر من كثرة الأولاد الذين أنجبتهم له هذه الزوجة، متمنياً لو كانت عقيماً، أو أنّه كان خادماً في منزل فلا يستطيع الزواج، أو أنّه أحجم عن الزواج، وعدل عنه إلى فعل الحرام: (٣٧)

وبليّتي عِرْسٌ بليت بمقتها
جعلت بإفلاسي وشيبي حجة
يا ليتها كانت عقيماً آيساً
أو ليتني من قبل تزويجي بها

والبغل ممقوتٌ بغير قيام
إذ صرت لا خلفي ولا قدّامي
أو ليتني من جملة الخدّام
لو كنتُ بعْتُ حلالها بحرام

ويبدو أنّ هذا الفقر قد ولّد لدى البوصيريّ شعوراً بالعجز والضالة، وإحساساً بعدم الثقة بالنفس والذلة والمسكنة، لذلك نراه يقول في القصيدة السابقة:

كيف الخلاصُ من البنين ومنهمُ
مَنْ كان مثلي للعيالِ فإنّهُ
أصبحت من حملي همومهمُ على

قومٌ وراي وآخرون أُمامي
بَعْلُ الأرامِلِ أو أبو الأيتامِ
هرمي كأنّني حاملُ الأهرامِ

٣ - العَصِيَّاتُ الطائِفَةُ:

كان نفوذ أهل الذمّة من اليهود والنصارى في دولة المماليك الأولى في مصر قوياً، إذ استكثر سلاطين المماليك من استخدامهم في دواوين الدولة، ولا سيّما فيما يتعلق بالشؤون المالية، فقد تحدّث ابن الأخوة عن ازدياد سلطان اليهود والنصارى، وتجاوزهم الحدّ بتأييد من الدولة حتّى «أظهرت منهم الأيّام طبايع شيطانيّة، مكنتها وعضدتها يد سلطانيّة» (٣٨)، وصار

من المؤلف أن تشاهد «اليهودي والنصراني راكبا يسوق بمركبه، والمسلم يجري في ركابه، وربما تضرعوا وتذللوا له ليرفع عنهم ما أحدثه عليهم» (٣٩).

واستكر السيوطي اعتماد دولة المماليك على (الأقباط) والمسالمة، وعدولهم عن وزارة العلماء المسلمين، وعد ذلك أول شؤم أدخله الأتراك إلى مصر (٤٠). كما دُهِش الأسنوي من قوة نفوذ أهل الذمة في مصر، فقال: «والعجيب أنه لا يعرف في إقليم من الأقاليم من الشرق إلى الغرب توليتهم إلا في اقليم مصر خاصة.. مع أنه أعظم أقاليم الإسلام، وأوسعها علما، وأكثرها علما» (٤١). وقد ترتب على ذلك أن توترت العلاقات بين المسلمين والأقباط بصورة خاصة، وكانت تحدث بعض التعديات بين الطرفين (٤٢).

وحديث البوصيري عن العصبية الطائفية يدور حول محورين رئيسيين، هما: هجاء (قبط الدواوين)، ومجادلة اليهود والنصارى في عقائدهم الدينية. وكان من حق المحور الأول الذي يتعلق بـ (قبط الدواوين) أن يُدرس في سياق الحديث عن ظاهرة الفساد المالي والإداري، إلا أنه ارتئي أن يعالج تحت عنوان (العصبية الطائفية)، لأن هذه العصبية كانت ظاهرة بارزة في المجتمع المصري آنذاك، ولأنها من القضايا الأساسية التي تناولها البوصيري في شعره بتوجيه من مشاعره الدينية، ولأنها ذات صلة وثيقة بالشعر الذي جادل فيه البوصيري اليهود والنصارى في كثير من المسائل الاعتقادية المتعلقة بدين كل منهما.

ويصور شعر البوصيري قوة نفوذ الأقباط في الدولة، واستئثارهم بكثير من الوظائف المالية، وسوء تصرفهم فيها، وخيانتهم لها، ومعاملتهم السيئة للمسلمين، واستعلاءهم عليهم، لذلك فقد دعا الشاعر إلى التخلص منهم، وعدم الاعتماد عليهم، كما في الأبيات التالية التي حمل فيها على كتاب النصراني في المحلة، واصفا إياهم بأنهم لصوص، مصورا معاناة المسلمين منهم، وسطوتهم عليهم، حاثا على الفتك بهم، وتخليص الناس من شرورهم: (٤٣)

وقد قيل كتاب النصراني مناسر	فما مثل كتاب المحلة منسر
فبرد فؤادي بانتقامك منهم	فقد كاد قلبي منهم يتفطر
وحسبك أني منهم متصور	وكل امرئ منهم كذا يتصور

واستشارة للسلطان المملوكي يصور الشاعر تحدي الأقباط له، وقوة نفوذهم في دولته، حتى إنه - على قوته - بات عاجزا عن قهرهم ووضع حد لفسادهم، مبينا أن الوضع الطبيعي لهم في الدولة هو إذلالهم وتعذيبهم:

يقولون لو شاء الأمير أزالهم	فقلت زوال القوم لا يتصور
فقد قهر السلطان كل معاند	وما أحد للقبط في الأرض يقهر
وما فيهم، لا بارك الله فيهم	أخو قلم إلا يخون ويفدر

كَأَنَّهُمُ الْبَرْغُوثُ ضَعْفًا وَجَرَاءُ
رِيَاستِهِمْ أَن يُصَفَعُوا وَيُجَرَّسُوا
وإمعانا في التحريض يتحدث البوصيري عن تعصب كتّاب النصارى لأبناء ملّتهم، وكرهيتهم للمسلمين، وتعصبهم عليهم، وسعيهم الدائب إلى تخريب البلاد، وإثارة الفتن في الدولة:

وَيُعْجِبُهُمْ مَنْ جَدُّ جَدِّيهِ بِطَرْسٍ
بَأَنَّ النَّصَارَى يَرْغَبُونَ لِبَعْضِهِمْ
عَدَاوَتُهُمْ لِلْمَلِكِ مَا لَيْسَ تَقْضِي
وَكَمْ عَمَّرَ الْوَالِي بِلَادًا وَأَخْرَبُوا
لِذَلِكَ يَعِدُّ الْبُوصَيْرِيُّ قَتْلَهُمْ وَتَخْلِيصَ الْبِلَادِ مِنْهُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَيَسْأَلُ السُّلْطَانُ أَنْ
يَعِينَهُ عَلَى التَّصَدِّيِّ لَهُمْ، وَالْقِيَامَ فِيهِمْ، مُؤَكِّدًا أَنَّهُ سَيَكْرُسُ شَعْرَهُ لَذَمِّهِمْ، وَتَبْيَانِ مَفَاسِدِهِمْ:
وَإِنْ تَتَصَرَّوْنِي قَمْتُ فِيهِمْ مُجَاهِدًا
فَإِنْ شَمَّرُوا عَنْ سَاقِ ظَلَمِي فَإِنِّي
وَيَسْتَشْفُفُ مَنْ شَعَرَ الْبُوصَيْرِيُّ أَنَّ شَرَّ النَّصَارَى فِي الْمَحَلَّةِ كَانَ مُسْتَطِيرًا، فَقَدْ عَادَ إِلَى
الْحَدِيثِ عَنْ عَدَاوَتِهِمْ لِلْمُسْلِمِينَ، وَكَرَاهِيَتِهِمْ لِلْإِسْلَامِ، وَرَغْبَتِهِمْ الدَّفِينَةَ فِي تَعْطِيلِ شَعَائِرِ
الْدِينِ الْحَنِيفِ، وَذَلِكَ إِذْ يَقُولُ: (٤٤)

إِنَّ النَّصَارَى بِالْمَحَلَّةِ وَدَّهِمْ
إِنْ عَادَ إِسْحَقُ إِلَيْهَا ثَانِيَا
صَرَفَ إِلَهِ السَّوَاءِ عَنْكَ بِصَرْفِهِ
لَوْ كَانَ جَامِعَهَا يَكُونُ كَنِيسَا
ضَرَبُوا عَلَى أَبْوَابِهَا النَّاقُوسَا
فَاصْرِفْهُ عَنَّا وَاصْفَعْ الْقَسِيْسَا
وَيَصَوِّرُ الْبُوصَيْرِيُّ فِي قَصِيدَةٍ أُخْرَى مَعَانَاةَ الْمُسْلِمِينَ فِي أَسْوَانِ وَالصَّعِيدِ، وَالضَّرَائِبِ
الْبَاهِظَةِ الَّتِي كَانَ يَفْرِضُهَا كِتَابُ النَّصَارَى عَلَيْهِمْ، وَتَفْتَنَّهُمْ فِي سَرَقَةِ الْأَمْوَالِ مِنْهُمْ، وَيَصِفُهُمْ
بَأَنَّهُمْ خَوْنَةٌ لَا أَمَانَةَ لَهُمْ، وَيَحْتِ الشَّاعِرُ عَلَى التَّفَرُّغِ لْجِهَادِهِمْ، لِأَنَّهُمْ أَخْطَرُ عَلَى الدَّوْلَةِ مِنَ
الْأَعْدَاءِ الْخَارَجِيِّينَ: (٤٥)

سَبَّوْا الرِّعْيَةَ لَمْ يُبْقُوا عَلَى أَحَدٍ
لَا تَأْمَنَنَّ عَلَى الْأَمْوَالِ سَارِقُهَا
وَحَلَّ غَزْوُ هَلَكَوْ وَالْفَرَنْسِ مَعَا
وَغَزَنَ عَامِلَ أَسْوَانَ (تَقَالَ) بِهِ
وَلَا أَمَانَةَ لِلْقَبِطِ الْمَلَاعِينِ
وَلَا تُقَرِّبْ عَدُوَّ اللَّهِ وَالْدِّينِ
وَأَنْهَضْ بِفَرَسَانِكَ الْغُرَّ الْمَيَامِينِ
جَنَاتِ عَسَدَنْ بِإِحْسَانٍ وَتَمَكِينِ

وكل أمثاله في القبط أغزهم

فالغزو فيهم حلال الدهر والدين

ولم يكن الأمر لدى النصارى والأقباط في مصر مجرد رغبة في الاستيلاء على الأموال، وكسب الثروات، وإنما كان أخطر من ذلك، فقد كانوا يعتقدون أنهم أهل البلاد الأصليون، وأن المسلمين طارئون عليها محتلون لها، و«أن البلاد الآن ملكهم، وأن المسلمين قد أخرجوهم منها بغير استحقاق، فيسرقون من الأموال ما قدروا عليه، ويعتقدون أنهم لم يخونوا ولم يظلموا» (٤٦). وقد كان البوصيري متمثلاً هذه المعتقدات، مدركاً خطورتها، فقال محذراً منها، ومعرضاً بها: (٤٧)

وقال القبط إنهم بمصر الملوك ومن سواهم غاصبونا

وحللت اليهود بحفظ سبت لهم مال الطوائف أجمعينا

وقد آتت دعوات البوصيري هذه (دون أن يُغفل دور الشعراء الآخرين) أكلها، فكانت الدولة تصدر أحياناً المراسيم بعدم استخدام أهل الذمة (٤٨)، وألاً «يُباشر أحد منهم وكالة ولا أمانة، ولا ما فيه تأمّر على المسلمين، بحيث لا يكون لم كلمة يستعلون بها على أحد من المسلمين في أمر من الأمور، فقد حرّم الله ذلك نصّاً وتأويلاً» (٤٩).

وقد عبّر البوصيري عن ارتياحه لمثل هذه الاجراءات التي وضعت حداً لتسلط النصارى، وصوّر ابتهاج المسلمين بذلك، كما في الأبيات التالية التي قالها بعد أن طرد الملك المنصور قلاوون الصالح الأقباط من الوظائف الحكومية سنة ٦٨٦هـ (٥٠).

أنام الرعايا في أمان وطرفه لما فيه إصلاح الرعية يسهر

فلا الخوف من خوف ألم بأرضه ولا الشر فيها بالخواطر يخطر

وكانت ولاية الحرب فيها كعاصف من الرياح ما مرّت عليه تدمر

هذرتهم مثل الرماة لكذبهم وعندى أن المرء بالكذب يهدر

ومذكره السلطان خدمتهم له تمنى النصارى أنهم لم ينصروا

ولم يكن التعصب الديني لدى النصارى مقصوراً على هذا الحد من المغالاة في كراهية المسلمين، والإفساد في الدولة، وسرقة الأموال، وإنما تعداه إلى ضرب من الجدل الديني بين الفريقين، فقد أخذ النصارى يؤلفون الكتب التي تظعن في الدين الحنيف، وتبين صحة معتقدتهم، وسلامة دينهم (٥١)، فانبأ لهم العلماء المسلمون يردون عليهم، ويكشفون زيف حججهم، وبطلان آرائهم، ولعل أشهرهم ابن تيمية، وبهاء الدين السبكي الذي قال: «ويا أيها الناس بينكم اليهود والنصارى قد ملأوا بقاع الأرض، فمن ذا الذي انتصب منكم للبحث معهم، والاعتناء بإرشادهم. بل هؤلاء أهل الذمة في البلاد الإسلامية تتركونهم هملاً، تستخدمونهم

وتستطبّونهم، ولا نرى منكم فقيهاً يجلس مع ذمي ساعة واحدة» (٥٢).

وقد سخر البوصيري جانباً من شعره للردّ على النصارى واليهود، والظعن في اعتقاداتهم، وتبيان فساد أفكارهم ومبادئهم، وهو ينطلق في ذلك من حسن إيماني عميق، لذا فقد قرن نفسه، وهو يدافع عن الإسلام، بحسّان بن ثابت الذي تصدّى لكفار قريش منافحاً عن الدين الحنيف، وذاباً عن الرسول الكريم، عليه السلام. يقول: (٥٣)

فادعني حسّان مدح وزدني إنني أحسنّت عنه المنايا
يا رسول الله عذراً إذا هبّ ستّ مقاماً حقّه أن يُهابا

ويتحدّث في موضع آخر من شعره عن بغضه الشديد للنصارى، عاداً ذلك من حسناته التي يأمل أن ينال الثواب عليها، مؤكداً أنه سيظلّ يصوّب سهام أشعاره نحوهم. يقول (٥٤).

لا تتكروا بغضي عدوّ المصطفى إنني ببغضهم له أتحبّب
أقسمتُ لا تنفك نارُ قريحتي أبداً على أعدائه تتلهّب

وأفاد البوصيري من قراءته التوراة والإنجيل واستيعابه ما فيهما من مبادئ وأفكار في التصرف في مجادلة أهل الكتاب، والنفاذ إلى المعتقدات الباطلة التي يؤمنون بها. فقد ناقش النصارى في قولهم بألوهية عيسى عليه السلام - محاولاً إقناعهم ببطلان هذا المعتقد، مستغلاً ثقافته الدينية استغلالاً واسعاً. كما في قصيدته التي وسمها «المخرج والمردود على النصارى واليهود» (٥٥):

جاء المسيح من الإله رسولا فأبى أقلّ العالمين عقولا
قومٌ رأوا بشراً كريماً فادّعوا من جهلهم لله فيه حلولا
فاعجب لأمتة التي قد صيرت تنزيهاً لإلهها التّكّيلا
هم بجّلوه بباطل فابتزّه أعداؤه بالباطل التّبعيلا
هو آدم في الفضل إلا أنّه لم يُعطَ حال النّفحة التّكميلا

وقد علّق البوصيري على هذه القصيدة التي نظمها بقوله: «لما رأيت كتب النصارى واليهود الآن مشحونة بما ينكرونه من بعث النبي، صلى الله عليه وسلم، وفيها القول بخلاف ما يدّعون من ألوهية المسيح، ومن صلبه، وإثبات رسالته إلى النصارى واليهود، وما لا يخفى، تعرّضت في هذه القصيدة إلى ذكر ما سهل نظمته من ذلك»، لذا جاءت القصيدة معرضاً للجدل الديني، والمناقشة العقديّة التي تعتمد على العقل والمنطق. فهو مثلاً يسخر من النصارى لأنهم قالوا إنّ عيسى إله، بينما هو يأكل ويشرب ويتعب وينام، ويقوم بغير ذلك من

الأفعال التي تجترحها النفس البشرية . يقول :

أسمعتم أن الإله حاجة	يتناول المشروب والمأكولا
وينام من تعب ويدعو ربّه	ويروم من حرّ الهجير مقيلا
ويمسّه الألم الذي لم يستطع	مرفأً له عنه ولا تحويلا
يا ليت شعري حين مات بزعمهم	من كان بالتدبير عنه كفيلا
ويسخر البوصيري من مقولة (الأقانيم الثلاثة) التي يزعمها النصارى، فيقول:	
ضلّ النصارى في المسيح وأقسموا	لا يهتدون إلى الرّشاد سبيلا
جعلوا الثلاثة واحداً ولو اهتمدوا	لم يجعلوا العدد الكثير قليلا

ويتناول البوصيري فكرة (التثليث) هذه على نحو أكثر تفصيلا في قصيدة أخرى صاغ كثيرا من أبياتها بأسلوب تهكمي مستفيدا من طرائق المتكلمين في محاكاة المخالفين ومجادلتهم، وذلك إذ يقول: (٥٦)

ليت شعري ذكرّ الثلاثة والوا	حدٍ نقص في عدكم أم نماء
إله مركّب ما سمعنا	بإله لذاته أجزاء
أكل منهم نصيبٌ من الملائكة	فهلّا تميّز الأنصبا
أم هم حلّلوا بها شركة الأرباب	أمدان أم هم لبعضهم كفلاء
إن قولاً أطلقتموه على الله تعالى	ذكرّا لقول هراء

وحين يجادل البوصيري اليهود فإنّه يركّز على موقفهم من موسى عليه السّلام، وما جرى بينه وبينهم من أحداث، ولا سيّما عبادتهم العجل، مستعينا بكثير من المعاني التي وردت في القرآن الكريم حول ذلك . يقول: (٥٧)

ما بال من غضب الإله عليهم	حادوا عن الحق المبين ونكبوا
كفّرت على علم بهم علماؤهم	جرب الصّحيح ولم يصحّ الأجرب
عبدوا، وموسى فيهم، العجل الذي	ذبحوا به ذبح العجول وعذبوا
وصبّوا إلى الأوثان بعد وفاته	والرّسل من أسف عليهم تنذب

ويكذب البوصيري كثيرا من دعاوى اليهود على الله سبحانه وتعالى، وكيف أنهم جعلوا الله كالإنسان له جوارح، وأنّه تصارع مع يعقوب، ووعد بني اسرائيل أن يتوجه معهم إلى الشام . يقول: (٥٨):

وكفى اليهود بأنّهم قد مثّلوا	معبودهم بعباده تمثيلا
------------------------------	-----------------------

وبأنَّ إسرائيل صارع ربّه

وبأنّهم رحلوا به في قبة

ويُسهب الشاعر في الحديث عن مواقف اليهود من الأنبياء الذين بُعثوا إليهم، منزها أولئك

الأنبياء ممّا قاله بنو إسرائيل عنهم، وألصقوه بهم. من ذلك قوله:

وحديثهم في الأنبياء فلا تَسَلْ

لم ينتهوا عن قذف داود ولا

وعزّوا إلى يعقوب من أولاده

والى المسيح وأمه وكفى بها

ولن تعلق بالصليب بزعمهم

لعلنا يعود عليهم مكفولا

ويعجّ شعر البوصيريّ بهذا الجدل الديني المؤسّس على العقيدة الإسلامية، ويقابله ثناء عطر على سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وعرض لسيرته الشريفة، وتوحيه بأخلاقه وصفاته، وتمجيد لجهاده، ومدح لصحابته وأتباعه^(٥٩).. ومن هنا فإنّه يمكن القول إنّ المشاعر الدينية التي أوقد جذوتها العصبانيّات الطائفية لدى أهل الكتاب كانت دافعا قويا للبوصيريّ، ولغيره من شعراء عصره في مصر، للقول في مدح النبيّ، عليه السلام، لذلك لم تخل مدحة من مدائحه النبوية من مجادلة اليهود والنصارى، وتسفيه لأرائهم، وتنزيه للرسول الكريم عمّا قالته هاتان الطائفتان في أنبيائهما، على شاكلة قوله: (٦٠)

دع ما ادّعت النصارى في نبيهم

وانسب إلى ذاته ما شئت من شرف

واحكم بما شئت مدحا فيه واحتكم

وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

٤ - التصوف:

انتشرت في مصر في القرن السابع الهجريّ، لسبب أو لآخر، طرق صوفيّة متعدّدة، وشكّلت هذه الطرق مظهرا بارزا من مظاهر المجتمع المصري آنذاك، وتعدّ الطريقة الشاذليّة التي ينتمي إليها البوصيريّ من أشهرها. وقد أشاد البوصيريّ بعناية أولى الأمر بالمتصوفة، وقيامهم على شؤونهم احتسابا للأجر عند الله سبحانه، كما في قوله يمدح الأمير عز الدين أيدير: (٦١)

وما يزال يُعين الطائعين إذا

ومن أعان أولى الطاعات شاركهم

تطوّعوا بجميل، أو إذا نذروا

في أجر ما حصروا منه وما تجروا

وشعر البوصيريّ يصوّر جانبا من تعاليم الطريقة الشاذليّة وتقاليدها، ففي ديوانه قصيدة طويلة مدح فيها أبا لعباس المرسى أحد أئمة الطريقة، وعزّاه في شيخه أبي الحسن الشاذليّ

الذي توفي سنة ٦٥٦هـ، ومطلعها: (٦٢)

كتب المشيب بأبيض في أسود
بغضاء ما بيني وبين الخرد
والقيمة الوجدانية لهذا الشعر ضئيلة، وهو أشبه ما يكون بالترويج للطريقة الشاذلية والدعاية لها، فقد حث الشاعر على الدخول فيها، والانتماء إليها، والاقتداء بتعاليم مؤسسها، ونوه بمآثر هذا الشيخ المؤسس الذي جمع إلى علوم الشريعة علوم التصوف المستمدة مباشرة من العلم الإلهي، مع الإيمان بالحقيقة المحمدية باعتبارها علة الوجود وسره وروحه:

إن الإمام الشاذلي طريقه
في الفضل واضحة لعين المهدي
فانقل ولو قدماً على آثاره
فإذا فعلت فذاك آخذ باليد
واسلك طريق محمدٍ شريعة
وحقيقة، ومحمدي المحتد
من كل ناحية سناه يلوح من
مصباح نور نبوة متوقد
قطب الزمان وغوثه وإمامه
عين الوجود لسان سر الموجد

ويتحدث البوصيري عن انتقال زعامة هذه الطريقة بعد وفاة الشاذلي سنة ٦٥٦هـ إلى أبي العباس المرسى، ويدعو أتباعه إلى الالتزام بمبادئها، والسير على النهج الذي اختطه الشاذلي لها:

اليوم أحمد من علي وارث
حظي علي من وراثة أحمد
فكان يوشع بعد موسى قائم
بطريقه المثلى قيام مؤكّد
فليقصّد المستمسكون بحبله
دار البقاء من الطريق الأقصد

ويصور الشاعر المكانة السامية التي يتبوأها القطب في الطريقة الشاذلية، فقد كشف له الغطاء حتى صار مصدراً لعلوم الحقيقة التي تتناول الإيمان بالله وطرق الاتصال بالذات الإلهية، وغدا الأتباع والمريدون يردون عليه لينهلوا من نبع معرفته، فيصدرون وقد انتشت أنفسهم بهذه المعارف الحقّة:

أفاضه مبذولة بذل الحيا
ومصونة صون العذارى الخرد
كل يروح يشرب راح علومه
طرباً كفصن البانة المتأود
كشفت له الأسماع عن أسرارها
فإذا الوجود لمقلتيه بمرصد
وأرته أسباب القضاء مبينة
للمستقيم بعلمها والمُحد

ولما كانت الطريقة الشاذلية تقوم على الزهد، فإن البوصيري يحمل على الفقهاء الذين «تكلّفوا زي التقى»، وتظاهروا للناس بالزهد في الحياة، بينما هم منهمكون عليها، غارقون في متعتها:

قُلْ لِلَّذِينَ تَكَلَّفُوا زِيَّ التَّقَى
لَا تَحْسَبُوا كُحْلَ الْعَيُونِ بِحِيلَةٍ
وَالطَّرِيقَةُ الشَّاذِلِيَّةُ لَا تَعْتَطِلُ الْجَهْدَ الْإِنْسَانِي^(٦٣)، لَذَا ضَرَبَ الْبُوصِيرِيُّ لِأَتْبَاعِهَا الْمَثْلَ مِنْ
جِهَادِ الرَّسُولِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَصَحْبِهِ، وَحَثَّ عَلَى الْإِقْتِدَاءِ بِهِمْ، وَالسَّيْرِ عَلَى نَهْجِهِمْ:
مَنْ مَعَّشَرَ نَصَرُوا النَّبِيَّ وَسَابَقُوا
وَتَشَوَّا أَعْنَتَهُمْ وَقَدْ تَرَكَوا الْعِدَا
مَعَهُ الرِّيَّاحَ بِكُلِّ نَهْدٍ أَجْرَدٍ
بِالطَّعْنِ بَيْنَ مَجْدَلٍ وَمَقْدَدٍ



وَتَصَوِّفُ الْبُوصِيرِيُّ مُؤَسَّسَ عَلَى مَا يَعْرِفُ بِ«الْحَقِيقَةِ الْمَحْمَدِيَّةِ». وَمُؤَدَّى هَذِهِ الْحَقِيقَةُ أَنَّ
مُحَمَّدًا، عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَبْدَأُ الْوُجُودِ وَعِلَّتُهُ وَأَصْلُ تَكْوِينِهِ، وَأَنَّ الرُّوحَ الْمَحْمَدِيَّةَ سَبَقَتْ فِي الْوُجُودِ
صُورَتَهُ الْجَسَدِيَّةَ، وَبِذَلِكَ كَانَ وَجُودُهَا سَابِقًا عَلَى وَجُودِ الْكَائِنَاتِ جَمِيعِهَا، بَلْ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ
كُلِّهِمْ^(٦٤)، لِذَلِكَ لَا نَجِدُ فِي شِعْرِ الْبُوصِيرِيِّ تَعْبِيرًا عَنْ أَشْوَاقِ الْمُتَصَوِّفَةِ وَمَوَاجِدِهِمْ، أَوْ تَعْوِيلًا
عَلَى الرَّمْزِ الْغَزَلِيِّ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ هَذِهِ الْمَوَاجِدِ وَالْأَشْوَاقِ وَإِنَّمَا نَجِدُ ثَنَاءً عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ
عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَمَدْحًا لِشَخْصِهِ الْكَرِيمِ، وَعَرْضًا تَفْصِيلِيًّا لِسِيرَتِهِ. غَيْرَ أَنَّهُ لَا يَدَّ مِنْ الْإِشَارَةِ هُنَا
إِلَى أَنَّ الْبُوصِيرِيَّ لَمْ يَغَالِ فِي تَصَوُّرِهِ لِلْحَقِيقَةِ الْمَحْمَدِيَّةِ مَغَالَاةَ الْمُتَصَوِّفَةِ الْآخَرِينَ الَّذِينَ عَدَّوْا
الْحَقِيقَةَ الْمَحْمَدِيَّةَ وَالْحَقِيقَةَ الْإِلَهِيَّةَ شَيْئًا وَاحِدًا، وَإِنَّمَا تَنَاوَلَهَا بِصُورَتِهَا الْإِسْلَامِيَّةِ النَّقِيَّةِ، كَمَا
فِي قَوْلِهِ: (٦٥)

تَبْلَجَ مِنْ نُورِ النُّبُوَّةِ وَجْهُهُ
فَمَنَّهُ عَلَيْهِ لِلْعَيُونِ شَوَاهِدُ
وَقَاضَتْ بَعَارُ الْعِلْمِ مِنْ قَطْرِ سَحْبِهَا
عَلَيْهِ فَطَابَتْ لِلرُّوَادِ الْمَوَارِدُ

وَلَيْسَ دَقِيقًا مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَحَدُ الدَّارِسِينَ مِنْ أَنَّ الْبُوصِيرِيَّ مَسَّ الْحَقِيقَةَ الْمَحْمَدِيَّةَ مَسًّا
خَفِيفًا، وَأَشَارَ إِلَيْهَا فِي بَيْتٍ أَوْ بَيْتَيْنِ فِي مَعْظَمِ قِصَائِدِهِ^(٦٦)، وَالصَّوَابُ أَنَّ الشَّاعِرَ قَدْ أَفَاضَ
فِي الْحَدِيثِ عَنْ ذَلِكَ^(٦٧)، كَمَا فِي الْأَبْيَاتِ التَّالِيَةِ الَّتِي يَصَوِّرُ فِيهَا أَزَلِيَّةَ الْوُجُودِ الْمَحْمَدِيِّ،
وَحَقِيقَتَهُ الرُّوحِيَّةَ، وَأَسْبَقِيَّتَهُ لِلْكَائِنَاتِ كُلِّهَا: أَنْبِيَاءَ وَغَيْرِ أَنْبِيَاءَ، وَأَنَّ هَذَا الْوُجُودَ اسْتَمَدَّ مِنْهُ
الْأَنْبِيَاءُ، وَظَلَّ يَتَقَلَّلُ جَوْهَرُهُ فِيهِمْ إِلَى زَمَانِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَيْثُ اتَّحَدَ هَذَا الْجَوْهَرُ
الْمَعْنَوِيُّ بِشَخْصِ الرَّسُولِ الْكَرِيمِ وَوُجُودِهِ الظَّاهِرِ: (٦٨)

مُحَمَّدٌ حُجَّةُ اللَّهِ الَّتِي ظَهَرَتْ
مَنْ كَمَّلَ اللَّهَ مَعْنَاهُ وَصُورَتَهُ
مِنْ آدَمَ وَلَحِينَ الْوَضْعِ جَوْهَرَهُ الْمَكْنُونِ فِي أَنْفُسِ الصَّدَفَاتِ مَحْمُولُ
فَالنُّبُوَّةُ إِتِمَامٌ وَمَبْتَدَأُ
بِسُنَّةٍ مَا لَهَا فِي الْخَلْقِ تَحْوِيلُ
فَلَمْ يَفْتَهُ عَلَى الْحَالِينَ تَكْمِيلُ
بِهِ وَلِلْفَخْرِ تَعْجِيلُ وَتَأْجِيلُ

وتناول البوصيري الحقيقة المحمدية في قصيدة طويلة عبّر فيها عن أشواقه إلى الديار الحجازية، ومدح النبي عليه السلام مستمدا كثيرا من معانيه من تلك الحقيقة، على نحو تفصيلي. (٦٩)

ويرتبط الشعر الصوفي بمجالس الذكر والإنشاد، ومع أنّ الطريقة الشاذلية تعارض التفتي بالأشعار والإنشاد في حلقات الذكر (٧٠)، إلا أنّه يوجد في ديوان البوصيري «مقطوعات قصيرة يحسّ القارئ بأنّها ما قيلت إلا لغرض الإنشاد الصوفي، لما تحمل من خصائص موسيقية من حيث الوزن والإيقاع والبحور الخفيفة (٧١)». وليس الأمر مقصورا على المقطوعات، بل ربّما تعدّاه إلى بعض القصائد الطويلة كـ«القصيدة المضربة في الصلاة على خير البرية»، ومطلعها: (٧٢)

يا رب صلّ على المختار من مضر
والأنبياء وجميع الرسل ما ذكروا
فإنّ وزن هذه القصيدة بما فيه من خفة وحيوية وقافية ذات جرس موسيقي ونغمة توقيعية، يدلّ على أنّها أنشودة من أناشيد حلقات الذكر.

٥ - صور متفرقة:

ويُستشفّ من شعر البوصيري صور متفرقة تصف بعض مظاهر الحياة الاجتماعية في مصر في العصر المملوكي الأول، ومن هذه المظاهر:

ثورات العريان: وهي ثورات تكررت آنذاك، وهي تتخذ في الغالب طابع السلب والنهب (٧٣)، وهذا يعني أنّ العامل الاقتصادي كان عاملا رئيسيا في حدوثها، ومع ذلك فقد تبنّى البوصيري موقف الدولة منها.. ومن ثمّ فإنّ حديثه عنها يكاد يدور حول فكرتين متداخلتين، هما: تصوير الخطر التي كانت تمثله هذه الثورات على أمن الدولة واستقرارها واقتصادها، وتأييد سياسة العنف التي واجه بها سلاطين المماليك هذه الثورات، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها قوله: (٧٤)

عَصَتْ عليه أناس لا خلاق لهم	الشُّوم شيمتهم واللُّؤم والدُّبُر
تَلَثَّمُوا ثُمَّ قالوا: إنّنا عرب	فقلت: لا عرب أنتم ولا حضُر
ولا عهد لكم ترعى ولا ذِمٌّ	ولا بيوتكم شعُر ولا وَبَر
يشكو جميع بني الدنيا أدبيهم	فهم بطرقهم الأحجار والحُفُر
لما علمت بأنّ الرفق أبطرها	والمفسدون إذا أكرمتهم بطروا
زجرتهم بعقوبات منوعة	وفي العقوبات للطاغين مزدجر
كانهم أقسموا بالله أنّهم	لا يتركون الأذى إلا إذا قُهرُوا

المجون: تشدد الظاهر بيبرس في ملاحقة ظاهرة المجون التي انتشرت بين بعض فئات المجتمع المصري، فقد أمر بمعاقبة من يتعاطى الخمر، أو يقيم الحانات (٧٥) لها. وقد تفاوتت مواقف الشعراء من هذا الصنيع، وكان البوصيري بحكم حسنه الديني مبتهجا بذلك، فنوه بالآثار الايجابية لهذا العمل، حيث قال: (٧٦)

نَهَى السُّلْطَانُ عَنْ شَرْبِ الْحَمِيَا وَصَيَّرَ حَدَّهَا حَدَّ الْيَمَانِي
فَمَا جَسَرَتْ مَلُوكُ الْجَنِّ مِنْهُ لَخَوْفِ الْقَتْلِ تَدَخَّلَ فِي الْقَنَانِي

زيارة المشاهد والأضرحة: وأخذ الناس في مصر آنذاك يقصدون المشاهد، ويزورون المقامات والأضرحة يتوسلون بها إلى الله أن يكشف عنهم وطأة الأزمات، وثقل الشدائد والكربات (٧٧). وقد وصف البوصيري في قصيدة مدح فيها السيدة نفيسة بعد أن زار مقامها - وصف الناس الذين قصدوا هذا المقام آمليين أن ييسر الله مقاصدهم، وصور تراجهم عنده، وتمسحهم به، وانكبابهم على لثمه وتقبيله، وتضرعهم إليه، وارتفاع أصواتهم بالدعاء الشجي، يقول (٧٨):

فَطَوَّبِي لِمَنْ يَسْعَى لِمَشْهَدِكَ الَّذِي تَكَادُ إِلَى مَغْنَاهُ تَسْعَى الْمَشَاهِدُ
إِذَا يَمْتَنِّهِ الْقَاصِدُونَ تَيْسَّرَتْ عَلَيْهِمْ - وَإِنْ لَمْ يَسْأَلُوكَ - الْمَقَاصِدُ
تَحَقَّقَتْ الْبُشْرَى لِمَنْ هُوَ رَاكِعٌ يَرْجُو بِهِ فَضْلًا وَمَنْ هُوَ سَاجِدُ
فَعَفَّرَتْ الشُّبَّانُ وَالشُّيْبُ أَوْجَهًا بِهِ وَالْعَذَارَى حُسْرًا وَالْقَوَاعِدُ
هُوَ الْمَنْهَلُ الْعَذْبُ الْكَثِيرُ رَحَامُهُ فَارِدُهُ فَمَا مِنْ دُونِ وَرْدِكَ وَارِدُ

المنشآت العلمية والصحية: ويبرز شعر البوصيري جانباً من الحركة الثقافية التي ازدهرت في مصر في العصر المملوكي الأول، فقد أثنى على الملك المنصور قلاوون بعد أن بنى المارستان المنصوري الكبير ومدرسة الحديث والقبّة سنة ٦٨٤هـ (٧٩)، ووصف المارستان، وموقعه الصحي، وإحاطة الأشجار به من كلّ جانب. يقول: (٨٠)

وَقَبَّةٌ مَارِسْتَانُ لَيْسَ لِعِلَّةٍ عَلَيْهِ، وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ، مَرُورُ
صَحِيحُ هَوَاءٍ لِلنَّفُوسِ بِنَشْرِهِ مَعَادٌ وَلِلْعَظْمِ الرَّمِيمِ نَشُورُ
يَهْبُ فِيهِدِي كُلَّ رُوحٍ بِجَسَمِهِ كَأَنَّ صَبَاهُ حِينَ يَنْفَخُ صُورُ
فَلَوْ تَعْلَمُ الْأَجْسَامُ أَنَّ تَرَابَهُ مَهَادُ حَيَاةٍ لِلْجَسُومِ وَثِيرُ
لَسَارَتْ بِمَرْضَاهَا إِلَيْهِ أَسْرَةٌ وَصَارَتْ بِمَوَاتِهَا إِلَيْهِ قُبُورُ
بِجَنَّتِيهِ وَرَقٌ تَرَاوَسَ مَاءُهُ يَشُوقُ هَدِيلَ مِنْهُمَا وَهْدِيرُ

ويسهب البوصيريّ في وصف مدرسة الحديث ودورها في دفع الحركة العلميّة، ورفض المدارس التي حولها، مشبّها إياها بمدينة علم، مصوّراً روعة بنيان هذه المدرسة، وجمال معمارها. يقول:

ومدرسة ودّ الخورنق أنّه	لديها حظير والسدير غدير
مدينة علم والمدارس حولها	قرى، أو نجوم بدرهن منير
بناء كأنّ النحلّ هندس شكله	ولانت له كالشمع منه صخور
ثمانية في الجوّ يحمل عرشها	وبعض لبعض في البناء ظهير
وأنّ منارا قائما بإزائها	بنان إلى فضل الأمير يشير

الدراسة الفنيّة:

حين الحديث عن السمّات الفنيّة للشعر الاجتماعي لدى البوصيريّ فإنّه ينبغي التمييز بين نوعين من الشعر؛ الشعر الذي تحدّث فيه عن مظاهر الفساد المالي والإداري، أو صور ظاهرة الفقر، والشعر الذي جادل فيه اليهود والنصارى، أو تحدّث عن الطريق الشاذليّة والحقيقة المحمديّة (التصوّف)، ذلك أنّ طبيعة الموضوع كانت تؤثر في طريقة التعبير، مع الاعتراف بأن هناك سمات فنيّة عامّة تظهر في شعر البوصيريّ كلّهما كانت موضوعاته.

أمّا القسم الأوّل من الشعر فقد امتاز بالسهولة والوضوح، وحتىّ يحقق البوصيريّ لهذا الشعر ما يريد من سهولة، فإنّه يقترب بصياغته اللغويّة من اللغة المحكيّة اقتراباً شديداً، ويستخدم التعابير التي تجري على ألسنة العامّة بعد أن يصوغها بلغة فصيحة، ويدخل فيه بعض الكلمات الأعجميّة التي كان يتداولها الناس، ويستعمل طائفة من الألفاظ الفاحشة التي كانت ذائعة آنذاك. وتظهر بعض هذه السمات في الأبيات التالية التي يستطعم فيها كثافة، ويستمدّ معانيها وألفاظها من الواقع فبدت وكأنّها قطعة منه: (٨١)

ما أكلنا في ذا الصيّام كثافة	آه وابعدّها علينا مسافه
قال قوم إنّ العماد كريم	قلت هذا عندي حديث خرافه
أنا ضيف له وقد متّ جوعا	ليت شعري لمّ لا تعدّ الضيافه
وهو إن يطعم الطعّم فما يطعمه	إلا بسمعة أو مخافه
وهو في الحرّ والخريف وفي البيوت	يجمع الحطام كالجرّافه
فأعلموه عنّي ولا تعتبوني	إنّ عندي في الصّوم بعض الحرافه
فهو إن لم يخرج قليلا إلى الحا	يط في ليلتي طلعت القرافه

ويستخدم البوصيري الألفاظ العامية (رَجَله) و(شطاره) و(خرَّاره)، ويلتقط من أفواه العامة قولهم (أنا مالي على الغبون مراره)، وذلك إذ يقول على لسان بغلته منتقداً أحد المستخدمين بأسلوب فكاهي: (٨٢)

قالت البغلة التي أوقعته أنا مالي على الغبون مراره
إنّ هذا شيخ له بجوارده مع الناس كلّ يوم صهاره
قلت لا تفتري على الشاعر الفقيه، قالت: سل الفقيه عماره
لو أتاه في عرسه شطر فلّس لرأى البيّع رجلة وشطاره
قلت هذا شاذّ الدواوين، قالت ما أولي هذا على الخرّاره

ويضمن الشاعر البيت التالي الذي قاله في سياق أبيات ردّ فيها على قوم أشاعوا عنه أنه مات، أحد الأمثال العامية: (٨٣)

عاش من بعد موته البوصيري وحياة الكلاب موت الحمير
وتغدو لغة الشاعر أقرب إلى الكلام العاديّ منها إلى الشعر ذي الألفاظ المنتقاة حين ينقل هذا الحديث السهل الساذج على لسان حمارته: (٨٤)

وكان عزمي عند الوصول بكم أجمل من أن أساق للحصول
ما كان مثلي يعيره أحد قطّ ولكن سيدي جاهل
لو جرّسوه عليّ من سفه لقلت غيظاً عليه يستاهل

وحتى يحقّق البوصيري لشعره سمة الواقعية في التعبير فقد كان يغيّر من بنية الكلمة لتتفق ونطق العامة لها من ناحية، وتناسب القافية من ناحية ثانية، كما في كلمة (يستاهل) في الأبيات السابقة، وكلمة (والبه) بمعنى: فراخ الزرع، إذ حذف الألف، لجعلها (ولبه)، وذلك في قوله: (٨٥)

ولم يدعه كلاً على أحد بغير نفع كأنّـه ولّبه

وقد يخالف البوصيري القياس الصرفي في بناء بعض الكلمات، فيورد الكلمة كما تستخدمها العامة، مثل كلمة (مكيول) في قوله: (٨٦)

ومن مواش وأطيار وآنية ومن زروع ومكيول وموزون

وانسجما مع هذه الواقعية في التعبير، فقد استهلّ البوصيري إحدى قصائده بمقدمة حشد فيها كثيراً من أسماء الأماكن المصرية بأسلوب سهل يقترب من اللغة المحكية اقتراباً شديداً. يقول: (٨٧)

حَيِّ بلبيسَ منزلا في العمارَة
فالبَتَيَّاتِ فالجِرَّازِ فَتَبْتِيَّتِ فَشَبْرَا البَيَّومِ فالخَمَّارَه
وَإِذَا جِئْتَ حَاجِرَا بَيْنَ بَلْبِيْسَ وَقَلْيُوبِ مِنْ خَرَابِ فِزَارَه
فَارْجِعِ السَّيْرَ بَيْنَ بَنَاهَا وَأَتْسَرِيْبِ، وَكُلَّ لَشَاطِئِ الْبَحْرِ جَارَه

وهذا الميل إلى السهولة جعل الشاعر يكثر من الصيغ النثرية في شعره، كقوله «لست أهوى إلا جمال الحضارة» (٨٨)، «زامر الحيّ أو صغير الحارة» (٨٩)، «قد طال ما طردوا عنها وما انطردوا»، «قبح الله كلّ ذي طيلسان» (٩٠). كذلك فقد أكثر الشاعر من تقييد القافية مع تعمد أن يكون حرف الهاء هو الحرف الأخير منها، لتصبح القصيدة في إيقاعها قريبة جداً من الكلام المنثور. (٩١)

ولا يكاد البوصيريّ يحيد عن هذه السهولة في شعره الذي جادل فيه اليهود والنصارى أو الذي تحدّث فيه عن الحقيقة المحمدية، غير أنّ لغة هذا الشعر ارتفعت في مستواها، فنجد الشاعر يهتمّ بفصاحة الكلمة، وسلامة التركيب، وقوة العبارة، وجزالة النغمة، مع الإكثار من الألفاظ ذات الدلالات الدينية.

ولعلّ إثارة الشاعر السهولة في شعره عامّة قد أتاح له بسط أحاسيسه ومشاعره، وتداعي أفكاره ومعانيه على نحو عفويّ - أو موهم بالعفوية - ومن ثمّ كان نفس الشاعر في قصائده نفساً مطّرداً، فطالت على نحو يسترعي النظر. وربما كان ثمة عامل آخر أدى إلى هذا الطول وهو طبيعة المادة التي يستقي منها شعره، فهو يصف ما يشاهد حيناً، ويستمدّ من ثقافة دينية عميقة حيناً آخر.

ومن السمات الفنية البارزة في شعر البوصيريّ أسلوب الحوار الذي يضيف على النصّ الشعريّ نزعة قصصية تقترب ممّا يجري في الواقع، فتبدو الأبيات وكأنّها أخذ وعطاء، وتبادل أفكار ومطارحات تقوم على السؤال والجواب، وأكثر ما يبدو هذا في شعره الذي صوّر فيه حياته المنزلية ومشكلاته مع زوجه بسبب فقره. من ذلك الحوار التالي الذي أجراه ببساطة وعفوية على لسان زوجته وأختها: (٩٢)

وَيَوْمَ زَارَتْ أُمَّهُمْ أَخْتَهَا
وَأَقْبَلَتْ تَشْكُو لَهَا حَالَهَا
قَالَتْ لَهَا كَيْفَ تَكُونُ النِّسَاءُ
قَوْمِي أَطْلَبِي حَقَّكَ مِنْهُ بَلَا
وَأَنْ تَأْبَى فَخَذِي ذَقْنَهُ
وَالْأَخْتُ فِي الْغِيْرَةِ كَالضَّرَةِ
وَصَبَّرَهَا مِنْ عَسْرَةِ
كَذَا مَعَ الْأَزْوَاجِ يَا غِرَّةَ
تَخَلَّفَ مِنْكَ وَلَا فَتْرَةَ
ثُمَّ انْتَفِيْهَا شَعْرَةَ شَعْرَةَ

قالت لها ما عادتِي هكذا فإنَّ زوجي عنده ضَجْرَةٌ
أخاف إنَّ كَلَمَتَه كلمة طَلَّقَنِي. قالت لها: بَعْرَةٌ

أمّا حين يجادل الشاعر اليهود والنصارى فإنه يدرك ما للأساليب الانشائية من تأثير عميق، فيكثر من إيرادها للتشكيك في معتقداتهم أو إنكارها، على شاكلة قوله: (٩٣)

فَدَعُوا حديث الصَّلْب عنه ودونكم من كتبكم ما وافق التزويلا
شَهِد الزُّبُور بحفظه ونجاته أفتجعلون دليله مَدْخولا؟
أَيكون مَنْ حفظ الإله مضيّعا أو من أشيدَ بنصره مَخْذولا؟
أيجوز قول منزه لإلهه سبحان قاتِلِ نفسه فأقولا؟

ومع أنَّ المحسنات اللفظية كانت من المعايير التي يحكم بها للشعر في عصر البوصيري، فإنه يلاحظ أنَّ هذه المحسنات لم تكن مطلبا يسعى إليه الشاعر في شعره الاجتماعي. ولعلَّ هذا يعود إلى ارتباط شعر البوصيري بحياة العامة، وتصويره لنوازعها، وتعبيره عن همومها. ومثل هذا الشعر يروم التعبير عن الفكرة بأيسر لفظ وأقرب عبارة. وقد لاحظ أحد الدارسين استكثار البوصيري من المقابلة في شعره الذي جادل فيه اليهود والنصارى وعُلِّل ذلك قائلا: «ولقد كان هذا المحسن البديعي صادرا عن الفكرة التي عالجها البوصيري في شعره، ومن الموقف الذي يصدر عنه فلقد أكثر البوصيري من ذكر موقف المشركين من الرسالة المحمدية، وموقف المؤمنين أيضا. وأكثر من ذكر هزائمهم، وفي المقابل ذكر انتصارات المسلمين، فأنت المقابلة متلازمة متوازمة مع الموضوع الذي طرّقه» (٩٤).

وقد تأثر البوصيري بالشعراء السابقين، وتراوح ذلك بين التأثر الجزئي ببعض الأبيات، والمحاكاة التامة لبعض القصائد. وسأقف عند قصيدتين اثنتين لأبيّن من خلالهما أوجه هذا التأثر. والقصيدة الأولى جادل فيها اليهود والنصارى ومدح النبي محمد عليه السلام، ومطلعا: (٩٥)

وأفاك بالذنب العظيم المذنب خجلا يَغْنف نفسه ويؤنب

وهذه القصيدة تشاكل هاشمية الكميّ بن زيد التي مطلعها: (٩٦)

طربت وما شوقا إلى البيض أطرب ولا لعباً منّي وذو الشيب يلعب؟

في البناء الفني، وفي كثير من أنماط التعبير، وفي الروي. وهذا يدلّ على أن البوصيري كان يتمثّل قصيدة الكميّ، ويترسّم خطاها وهو ينظم قصيدته. فقصيدة الكميّ تتألف من ثلاث وحدات رئيسية: مقدّمة، ومدح لآل البيت، ومجادلة خصومهم لإثبات حقهم في الخلافة؛ ومثلها قصيدة البوصيري، فهي تتكوّن من مقدمة، ومدح للنبي وآله، ومجادلة أهل الكتاب. إلّا

أنّ البوصيريّ تصرّف في جزئيات هذه العناصر على نحو يتناسب والغاية الأساسية للنص، وهي مدح النبي عليه السلام، والتوسّل به إلى الله أن يغفر ذنوبه وخطاياهم. فالكميت ينفي عن نفسه في المقدمة أنّه «يلهو ويلعب» أو أن تكون أشواقه إلى «بنان مخضّب»، وذلك توطئة للحديث عن حبّه لآل البيت وانحصار أشواقه فيهم، في حين نجد البوصيريّ يستعير بعض الألفاظ والتعابير من الكميت ولكن بعد أن يوجهها إلى معان أخرى، أو بعد أن يعكس دلالاتها، فالدنيا «تلعّب به»، وهو «يخوض فيها ويلعب»، مع أنّه «ذو شعبة عوراتها ما تخضّب»؛ وهو بذلك يهيئ الجو المناسب لمَدح النبيّ والتوسّل إلى الله به.

ثم يأخذ الكميت بعد ذلك في مدح آل البيت، فيجاريه البوصيريّ فيمدح النبي عليه السلام وآله. وهنا نجد تشابها كبيرا في المعاني. وقد يقال في تعليل ذلك إن الصورة النموذجية للنبيّ وآل بيته قد استقرت في الوجدان الجمعيّ للمسلمين، وأنّ أيّ حديث عنها سيكون ضمن ذلك الإطار. وهذا صحيح، ولكن النسيج اللغويّ لقصيدة البوصيريّ يدل على أنّه كان ينظر في قصيدة الكميت ويستعير منها، حتّى بدا هذا النسيج متقاربا جداً. وفيما يلي أبيات من قصيدة البوصيريّ توضح ذلك:

وقفتُ بجاه المصطفى أماله	فكانه بذنوبه يتقرّبُ
تمكّن الأخلاق إلّا أنّه	في الحكم يرضى للإله ويغضبُ
فاطرب لتسبيح الحصى في كفّه	فمن السماع لذكره ما يطربُ
يا من يُرجى في القيامة حيث لا	أم تُرجى للنجاة ولا أبُ
لله يوم خروجه من مكّة	كخروج موسى خائفاً يترقّبُ

ومن يقرأ قصيدة الكميت يجد تعابير مقاربة لما ورد في الأبيات السابقة، مثل «فيما نابني أتقرب» و«أرضى مرارا وأغضب»، و«طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب» و«وما ورثتهم ذاك أم ولا أب» و«أروح وأغدو خائفاً أترقب».

أما الجزء الأخير من القصيدة فهو جدال ومحاجة، الكميت يجادل مفتصبي حقه آل البيت في الخلافة، والبوصيريّ يناقش أهل الكتاب الذين كفروا بالدعوة المحمدية. وعند هذا الحدّ يمكن القول إنّ البوصيريّ ترسّم خطأ الكميت في هاشميّته، وأنه عمل على احتذاء طائفة من عناصرها، واسترهاد كثير من ألفاظها وعباراتها، إلّا أنّه لم يرق إلى المستوى الفنيّ لتلك الهاشمية، ولعلّ هذا يعود إلى شاعرية البوصيريّ، وإلى فهمه لعملية المحاكاة على أنها تقليد لنصّ متقدّم ومحاولة للوصول إلى المستوى الفنيّ لذلك النصّ.

والقصيدة الثانية التي سأقف عندها لتبيان الأصول الفنية للبوصيري وتأثره بالشعراء السابّقين هي قصيدته التي مطلعها:

ثكلت طوائف المستخدمين فلم أر فيهم رجلا أمينا
فهذه القصيدة تحاكي في بعض جوانبها معلقة عمرو بن كلثوم:

ألا هبّي بصحنك فاصبحينا ولا تبقي خمور الأندرينا

فالبنية الموسيقية (الوزن والقافية) للقصيدتين متشابهة، ولعلّ البوصيري أراد أساساً أن يستعيد هذه الموسيقى المألوفة لمعلقة عمرو بن كلثوم، لما لها من قوّة إيحائية تضيف على قصيدته طابع الفخامة والجزالة، وتحقق لها الانتشار والذيع.

وهذه المحاكاة الموسيقية أوقعت الشاعر تحت تأثير المعلقة، فغدت نصّاً مرجعياً يستمدّ منه كثيراً من التعابير والصور والقوافي، كما في قوله:

فخذ أخبارهم منّي شفاها وأنظرني لأخبرك اليقينا
ولا تحسب حسابهم صحيحا فإنّ بخصمه الداء الدفينا
وأسياف الجماعة جائلات كأسياف بأيدي لاعبيننا
وجنّ مشارف بعثوا شهودا فإنّ من الوثوق بهم جنونا
إذا ألقى بها موسى عصاه تلقّفت القوافل والسفيننا

فالشاعر يستعير في هذه أبيات التراكيب التالية من معلقة عمرو بن كلثوم بعد أن يجري فيها تحويراً طفيفاً: «وأنظرنا نخبرك اليقيننا»، «عليك وتخرج الداء الدفينا»، «كأسياف بأيدي لاعبيننا»، «قد جنت به جنونا»، «وماء البحر نملؤه سفينا».

ويسترجع البوصيري - أحيانا بعض أبيات المعلقة بتحوير طفيف، كما في قوله:
فجئنا بالنهاب وبالسبايا وجاءوا بالرجال مصفّدينا
فهذا البيت قريب جدا من قول ابن كلثوم:

فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفّدينا

وأحيانا يحاكي البوصيري نمط التركيب اللغويّ للبيت دون أن يكون هناك تشابه في المعنى أو تقارب في الألفاظ، كما في قوله:

بأيّ أمانة وبأيّ ضبط أردّ عن الخيانة فاسقيننا
فهو محاكاة للتركيب اللغويّ في البيت التالي:

بأيّ مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا

أما إذا نظرنا في العلاقة ما بين مضمون القصيدتين فإنه يبدو للوهلة الأولى التباين بينهما، إلا أنّ التدقيق يبيّن أنّ كلتا القصيدتين تتحدث عن ضرب من ضرب الصراع،

فقصيدة عمرو بن كلثوم تتحدث عن الصراع القبلي، وقصيدة البوصيري تتحدث عن الصراع الاجتماعي بين المستخدمين والعامّة، وتبع هذا الاختلاف في طبيعة الصراع اختلاف في المعاني الجزئية التي تناولها كل شاعر.

وقد استخدم البوصيري التصوير البياني وغير البياني في نقل معانيه والتعبير عن مشاعره، وكانت الصور الدينية من أكثر هذه الصور دورانا في شعره، ولعلّ هذا يعود إلى التكوين الثقافي للشاعر، وتعمق الإحساس الديني في نفسه، بالإضافة إلى طبيعة القضايا التي تناولها. وكان القرآن الكريم مصدرا رحبا للصورة في شعر البوصيري، وقد أظهر مقدرة على التصرف بأي الذكر الحكيم، والإفادة منها، كما في الأبيات التالية: (٩٩)

وإذا بلغت بمجمع البحرين من	علميه فانقع غلة القلب الصدى
فمتى رأى موسى الإرادة عنده	خضر الحقيقة نال أقصى المقصد
وإذا الفتى خرقت سفينة جدّه	لنجاتها وجد الأسى غير الدد
وتبدلت أبوا الغلام بقتله	بأبر منه لوالديه وأرشد
وأقيم منتقض الجدار وتحتّه	كنز الوصول إلى البقاء السرمدي

فالشاعر يتبنى في هذه الأبيات التي يمدح فيها شيخ الطريقة الشاذلية الإشارات القرآنية والأسلوب القرآني على نحو واضح، فهو يستوحي قصة سيدنا موسى مع الخضر، عليهما السلام، ويوجه وقائع هذه القصة توجيها ينسجم والرمز الصوفي.

وحين نوه البوصيري بالإصلاحات الزراعية التي قام بها أحد سلاطين المماليك التفت إلى القرآن الكريم واستمد منه طائفة من الصور والتعابير التي تصف ما قام به ذلك السلطان، وذلك إذ يقول: (١٠٠)

وأقبلت تحيي الأرض من بعد موتها	وفي الجود ما يحيي الموات وينشُر
فأخرجت مرعاها، وأجريت ماءها	غداة بحار الأرض أشعث أغبر
فها هي تحكي جنة الخلد نزهة	ومن تحتها أنهارها تنفجر
وأعطيت سلطاناً على الماء عاليا	به يزخر البحر الخضم ويسجر
فخذ آيتي موسى وعيسى بقوة	وكلّ النصارى واليهود تحسروا
فيا صالحا في قسمة الماء بينهم	ولا ناقة في أرضهم لك تعقر

فقد استحضّر الشاعر في الأبيات السابقة عدداً من الصور القرآنية التي تصف انبعاث الحياة وتدفعها، واستخرج منها صورا فنية موحية تمثل عودة الخصب والنضارة إلى الأرض، وجريان المياه في أنحائها بعد الإصلاحات التي قام بها السلطان المملوكي الذي قرنه بموسى

الذي شقَّ البحر، وعيسى الذي أحيا الموتى، وورَّى عنه بالنبيِّ صالح.
وقد يستخدم الشاعر الصور الدينية لإضفاء هالة من الجلال على الممدوح، وتقريبه من
الصور النموذجية للإنسان الصالح، كما في قوله يمدح أحد سلاطين الماليك: (١٠١)
ورثوا الأرض مثل ما كتب الله تعالى في الذكر بعد الزبور
فهم القائمون في الزمن الأوَّ ل بالقسط والزمان الأخير
عبدوا الله مخلصين له الديــــــــــــــــن لما في قلوبهم من نور
أهل بيت مطهرين من الرجــــــــــــــــس وهم أغنيا عن التطهر
فالشاعر يلتفت في هذه الأبيات إلى الرفد القرآني، ويقتبس آيات كاملة ويدخلها في بنية
شعره بعد أن يحوِّرها تحويرا طفيفا، إذ نجد في تضاعيف هذه الأبيات جملة الآيات القرآنية
التالية:

«ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون»، الأنبياء ١٠٥.

«يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله»، النساء ١٣٥.

«وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين»، البينة ٥

«إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا» الأحزاب ٣٣.

كذلك فقد استوحى البوصيري آيات القرآن الكريم لفظا ومعنى وهو يجادل اليهود
والنصارى وينافح عن الإسلام ونبيِّه محمد عليه السلام، كما في قوله يتحدث عن ضلالات
بني إسرائيل: (١٠٢)

قتلوا الأنبياء واتخذوا العــــــــــــــــجــــــــــــــــل ألا إنهم هم السفهاء

وسفيه من ساءه المنّ والســــــــــــــــئــــــــــــــــلوى وأرضاه الفوم والقثاء

وقوله يتحدث عن الرسالة المحمدية وفضلها على العالمين: (١٠٣)

وما محمد إلا رحمة بُعِثَتْ للعالمين وفضل الله مبذول

وحين يصور البوصيري تأصل الخيانة والغدر في نفوس أهل الكتاب في عصره، يلتفت إلى
القصص القرآني ويضرب لهم الأمثال منه، فيذكر قتل قابيل أخاه هابيل، وغدر أبناء يعقوب
أخاهم يوسف، ويدعوهم إلى التأسي بذلك. يقول: (١٠٤)

قد علمتم بظلم قابيل هابــــــــــــــــيــــــــــــــــل، ومظلوم الأخوة الأتقياء

وسمعتهم بكيد أبناء يعقــــــــــــــــو ب أخاهم، وكلهم صلحاء

حين ألقوه في غيابة جبٍّ ورموه بالإفك وهو براء

فتأسوا بمن مضى إذا ظلمتم فالتأسي للنفس فيه عزاء

واستخدم الشاعر الصور الدينية في الشعر الذي انتقد فيه المستخدمين؛ فالشهاب المسريّ ينقضّ على أموال الصدقات «كالشيطان» (١٠٥)، والمستخدمون يمشون «على غير الصراط المستقيم» (١٠٦)، وهم يشبهون «فرعون» (١٠٧) الذي سام المؤمنين الأذى والهوان، وموسى (وهو أحد المستخدمين) يتلقف أموال الرعيّة كما تلقفت عصا سيدنا موسى أقاعي السحرة (١٠٨)، وحال المسلمين معهم كحال من يقف على شفا جرف هار (١٠٩).

كما وظّف الشاعر هذه الصور في الشعر الذي تحدّث فيه عن فقره، وكثرة عياله، وتبرّم زوجته منه، فهذه الزوجة قد «لجّت عليه في عتوّ ونفور» (١١٠)، ودعت عليه «بالويل والثبور» (١١١)، وأطفاله «تشخص أبصارهم» إذا رأوا كعكة أو ثمرة في يد طفل (١١٢).

وثمة مصدر آخر استمدّ منه البوصيريّ صوره هو المصدر التاريخي، وكانت السيرة النبوية من أهم رواقد هذا المصدر، بحيث غدا شعر البوصيري في بعض جوانبه استعادة لأحداث هذه السيرة العطرة، كما في الأبيات التالية التي يتحدّث فيها عن معركة بدر: (١١٣)

ويوم بدر إذ الإسلام قد طلعت	به بدوراً لها بالنصر تكميلُ
سيئت بما سرّنا الكفار منه وقد	أفنى سراتهم أسر وتقتيلُ
كأنما هو عرس فيه قد جُلبت	على الطبا والقنا روس مفاصيلُ
والخيل ترقص زهواً بالكماة وما	غير السيوف بأيديهم مناديلُ
ولا مهور سوى الأرواح تقبلها البيد	خ البهاتير والسممر العطاييلُ
فلو ترى كل عضو من كمامتهم	مفصّلاً وهو مكفوف ومشلولُ
كأحرف أشكلت خطأ فأكثرها	بالطن والضرب منقوط ومشكولُ
وكلّ بيت حكى بيت العروض له	بالبيض والسممر تقطيع وتفصيلُ

وواضح أنّ الصورة في الأبيات السابقة صورة كليّة موسّعة تؤلّف منظراً عاماً يصف انتصار المسلمين وهزيمة الأعداء يوم بدر، وواضح كذلك أن الشاعر لم ينقل الحقيقة التاريخية مجرّدة، وإنّما لونها بمشاعره مستخدماً طائفة من الصور الجزئية التي تعبر عن ابتهاج الشاعر بالنصر الذي أحرزه المسلمون يوم بدر، وشماتته بهزيمة الأعداء، وهذه الصور الجزئية مستمدة من مصادر متنوعة، فهي من الطبيعة السماوية (بدور)، والحياة الاجتماعية (عرس ومهور)، والسلوك الإنساني (ترقص زهواً)، والرسم الكتابي (مكفوف ومشكول، وأحرف وأشكلت)، والعروض (تقطيع وتفصيل).

وهذا التنوع في مصادر الصورة يقودنا إلى الحديث عن مصدر هام للصورة في شعر

البوصيري هو الطبيعة السماوية، ولا سيما في الأشعار التي مدح بها النبي محمداً عليه السلام، ليظهره في صورة جمالية تجمع بين السمو والصفاء. فمحمداً عليه السلام «سما ما طاولتها سماء»، والأكوان تشرق من أنواره، وهو شمسُ فضلِ الرسل كواكبها، وقد بدت للناس منه شمس علم طوالع ما تزول ولا تغيب، ولكل عين منه بدر طالع، وقد سرى من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ليلاً «كما سرى البدر في داج من الظلم». أمّا القرآن فهو «فلك يدور على الوجود مكوكب» و«كالشمس لم يخفها الجحد» (١١٤).

واستوحى البوصيري كثيراً من الصور الريبعية الزاهية في حديثه عن فضائل النبي، عليه السلام، وصفاته، فـ «خلقه النسيم» ومكارمه «يحيا بها القلب الموات ويخصب» ومحياه «الروضة الغناء» وحديثه زهر نضير» و«غيث سكوب» و«غادية عزاليها تصوب». وهو «كالزهر لاح من سجدف الأكمام» و«العود شق عنه اللحاء». والدين الذي جاء به ماء يشفي الغلة وغيره سراب، وسور القرآن كالحب أعجب الزراع منه سنابل وزكاء، والأراضي الحجازية «روضة غناء»، وسيرته عليه السلام أنفاس ورد سرت. (١١٥)

وقد التقط البوصيري كثيراً من صوره من البيئة الزراعية المصرية، كما في الأبيات التي يعرض فيها بالنصاري ويصور خبث مقالهم (١١٦)

وما الحق في أفواه قوم كأنها	وأوان حوت ماء خبيثا مطحلبا
مفلجة أسنانها فكأنها	أصاب بها الزنجار أحجارا كهربا
كأن ثنابهم من الخبث الذي	تحصمهم في نياتهم وتزيبا

وقوله يصف جشع أحد المستخدمين ساخرا: (١١٧)

كأنه الدلو يعلو حين تملؤه	ماء ويفرغ ما فيه فينحدر
والدهر يرفع أطرافها كما رفعت	أذنانها لقضاء الحاجة البقر

وقوله يصور نهب المستخدمين أموال الرعية: (١١٨)

يرعون أموال الرعية بالأذى	لو يحلبون لأشبهوا الجاموسا
---------------------------	----------------------------

ومع أن البوصيري لم يعول في شعره على الرمز الخمري كما هو الحال لدى المتصوفة الآخرين، إلا أنه وظف هذا الرمز توظيفا آخر، فشبه العلوم التي يأخذها المريد عن أبي العباس المرسى براح يشربها من يده، ثم يستطرد في الصورة فيصف حقيقة هذه الراح، وتأثيرها في شاربها. يقول (١١٩):

كل يروح بشرب راح علومه	طرباً كفصن البانة المتأود
ضمن الوقار لها اعتدال مزاجها	فشرباها لا ينبغي لمعريد
فضحت معارفها معارف غيرها	والزيف مفضوح بنقد الجيد

ولكي يضيفي البوصيريّ على شعره سمة الواقعية والطرافة في التصوير، فقد استمدّ كثيراً من صوره من الحياة اليومية للشعب المصريّ، وهنا تبدو قدرة الشاعر على الملاحظة من ناحية، والربط بين المعنى الذي يريده والصورة التي يلتقطها من ناحية ثانية. فهو حين أراد أن يسخر من تصرفات أحد المحتسبين في شوارع القاهرة ويصوّر ضربه للناس على غير هدى، وما يعتريه من انفعالات يقرنه بـ «مرقص الدبة وزامر القربة»، فيقول: (١٢٠)

أوجع زيذا ضربيا وأشبعه سبّا كأني مرقص الدبّه
ويكسب الغيظ مقلتي وخد يّ احمرارا كزامر القربه

وحين يتحدث الشاعر عن معاناته بسبب فقره وكثرة عياله فإنّه يستمدّ صوره ممّا هو مأثوف لدى الناس ومن مشاهداته اليومية، فيقول: (١٢١)

قد صار كتابي وبيتي من بني غيري، وأبنائي كبرج حمام
أصبحت من حملي همومهم على هرمي كأني حامل الأهرام

وقد تنوّعت الأشكال الحسيّة للصورة في الشعر الاجتماعيّ الذي قاله البوصيريّ، فبعضها يعتمد «رسم الصورة بطريقة مباشرة مع الاحتفاظ بقدر من الإيحاء يمنع الحرفية المحتملة فيه» (١٢٢)، كما في قوله يشكو فقره وكثرة عياله: (١٢٣)

وبليّتي عرسٌ بليت بمقتها والبغل ممقوت بغير قيام
جعلت يافلاسي وشيبي حجة إذ صرت لا خلفي ولا قدّامي
بلغت من الكبر العتيّ ونكست في الخلق وهي صبيّة الأرحام
إن زرتها في العام يوما أنتجت وأتت لستة أشهر بغلام
أو هذه الأولاد جاءت كلّها من فعل شيخ ليس بالقوام
كيف الخلاص من البنين ومنهم قوم وراي وآخرين أمامي

فالشاعر يقدّم لنا في هذه الأبيات انفعالاته بطريقة إيحائية بسيطة، فعبارة «والبغل ممقوت بغير قيام» توحى بضعف الشاعر وعجزه، وما ترتب على ذلك من ضيق نفسي لديه. والكناية في قوله «إذ صرت لا خلفي ولا قدّامي» تدلّ - على شعبيّتها - على عدم امتلاك الشاعر ما يرضي به أهله، وما يسببه له ذلك من آلام. والبيت الثالث يحقق المفارقة عن طريق المقابلة بين عبارة «بلغت من الكبر العتيّ» بمعناها الحرفي، وعبارة «وهي صبيّة الأرحام» بمعناها الإشاري. ويرسم البيت الأخير صورة لأبنائه الذين أحاطوا به، وهم يسألونه أن يوفر لهم ما يحتاجونه، وهي صورة توحى بتألم الشاعر لحال هؤلاء الأبناء، وإحساسه بالضالّة لعدم قدرته على تلبية حاجاتهم.

غير أنَّ الصور التي تعتمد التشبيه بأنواعه المختلفة كانت هي الأكثر شيوعاً في شعر البوصيري، كما في البيتين التاليين اللذين ردَّ فيهما على أحد الأدباء، مستخدماً ثلاث صور من صور التشبيه: (١٢٤)

وربَّ أديب ذي لسان كمبرد بدا من فم كالكير أو هو كيرُ
إذا ما رآني عافني واستقلَّني كأني في قعر الزجاجة سورُ

وعلى هذا النحو كان البوصيري يراوح في شعره بين استخدام التشبيه بالكاف أو بكأن أو بدون أداة، دون أن يجد الدارس إلحاحاً على نمط معين من أنماط التشبيه.

وتقلَّ الصور الاستعارية في الشعر الاجتماعي الذي قاله البوصيري، وقد توسَّل الشاعر إلى إيرادها بالتشخيص، كما في قوله يصوِّر البيت الحرام إنساناً يرحَّب بوفود الحجيج: (١٢٥)

قد رَحَّب البيت شوقاً والمقام بهم والحجر والحجر المثلوم والميل
وقوله يخلع على «الجور» صفة الإنسان فيجعله يأمر وينهى: (١٢٦)

وأمس رأى حال المحلَّة حائلاً وأعمالها والجور ينهى ويأمر
وقوله يشخِّص المعصية في صورة ناقة يركبها الإنسان العاصي: (١٢٧)

وأنى يهتدي للرشدِ لعاصٍ لغارب كلِّ معصية ركوب

وقد أدت الصورة في شعر البوصيري وظيفتها في الإيضاح ونقل الأفكار والمشاعر، فقد مرَّ بنا استخدام الشاعر كثير من الصور المستمدة من الطبيعة السماوية والأرضية في رسم صورة بهيَّة للنبيِّ محمد عليه السلام، تتسجم وفهم المتصوفة للحقيقة المحمدية.

كما أدت الصورة في شعر البوصيري وظيفتها في الإقناع، وذلك بإقامة الدليل على المعنى الذي يريد أن يقرِّره، حيث تتجلَّى قدرة الشاعر على التسويغ والتصرف بحقائق الأشياء. كما في قوله يردُّ على اليهود والنصارى الذين فرحوا باحتراق المسجد النبوي، وإتيان النار على زخارفه، مبيناً أن هذه النار قد أبرزت محاسن المسجد للناس بعد أن كانت محجوبة عن أعينهم: (١٢٨):

وإن ذهبَ بالنَّارِ عنه زخارف فما ضَرَّه منها ذهاب ولا فُقدُ
ألا ربَّما زادَ الحبيب ملاحه إذا شقَّ عنه الدَّرع وانتشر العقدُ
وكم سترت للحسن بالحلي من حلى وكم جسَّد غطَّى محاسنه البردُ
وأهيبُ ما يلقي الحسام مجرداً وزونقه أن يظهر الصَّفح والحدُ

وهذه الرغبة في التسويغ والتعليل أضفت على كثير من صور الشاعر طابعاً منطقياً، ولا سيَّما حين تكون قائمة على التشبيه الضمني الذي أكثر منه الشاعر إكثاراً واضحاً، كما في

قوله يحاجج النصارى: (١٢٩)

لو يصدقون لما أتت رسل لهم
أترى الطبيب غدا يزور عليلاً؟
وأحياناً ترمي الصورة في شعر البوصيريّ إلى الإضحاك، ولا سيما إذا كانت مستمدة من
الواقع، كما في قوله مصوراً أفعال كتاب الدواوين: (١٣٠)

وابن يغمور إذ كساه من الدرّة درعا كأنّه غفّاره
طبعّت رأسه دماً وبساطي جلدّة، أو حسبتّه جلنّاره
وسليمان كلما قرع القرّ عة، طنّنت كأنّها نُقّاره
والصّورة في الشعر الاجتماعيّ الذي قاله البوصيريّ سهلة بسيطة خالية من التكلّف
والتعقيد، ولا تدلّ على أنّ الشاعر كان يكدّ ذهنه في تطلّبها.

وبعد،

فقد تم في الصفحات السّابقة دراسة النزعة الاجتماعية في شعر البوصيريّ، وتبيّن أنّ
الشاعر كان قويّ الإحساس بالقضايا الاجتماعية الكبرى التي كانت تهّم الإنسان في المجتمع
المصريّ في العصر المملوكيّ الأوّل، وقد عبّر عن ذلك في شعره بأساليب بسيطة كفلت لها
الذّبوع والانتشار بين العامّة. وقد يكون لهذا الشعر سند من التاريخ وأساس من الواقع، إلّا أنّه
من غير الصواب أن ينظر إليه على أنّه وثيقة تاريخية، ومع ذلك فإنّه يكشف أبعاداً لا يعبر
عنها التاريخ بمثل هذا التركيز والحدّة التي عبّر بها البوصيريّ، بحيث إذا قرأناه ازددنا معرفة
بالحياة والقضايا التي كانت في دائرة اهتمام الإنسان في المجتمع المصريّ في العصر المملوكيّ
الأوّل.

التوثيق:

- ١- إغاثة الأمة: ٤٣، أحوال العامة في حكم الممالك (٦٧٨ - ٧٨٤): ٢٦٦ - ٢٦٧، ٣٤٦ - ٣٤٧.
- ٢- إغاثة الأمة: ٤٦.
- ٣- بدائع الزهور ١/١: ٣٦٣، السلوك ١/١: ٧٠٦، ٧١٧، حسن المحاضرة ٢: ٣٧، ٢٩٥.
- ٤- انظر حديثاً مفصلاً عن «ظاهرة الغلاء وأسبابها» في كتاب: أحوال العامة في حكم الممالك (٢٧٨ - ٧٨٤هـ) ١٨٥ - ٢١٣.
- ٥- ومن هؤلاء الشعراء بالإضافة إلى البوصيري: الجزار، السراج الوراق، ابن دانيال الموصلي.
- ٦- الوافي بالوفيات ٣: ١١١.
- ٧- ديوان البوصيري (المقدمة): ١١.
- ٨- مع البوصيري وابن عطالله: ٢٦.
- ٩- ديوان البوصيري: ٢٦٠.
- ١٠- المصدر السابق: ٩٩.
- ١١- المقفّي الكبير ٢: ٦٦٦.
- ١٢- المقفّي ٢: ٦٦٤، وانظر: فوات الوفيات ٣: ٣٦٢، الوافي بالوفيات ٣: ١٠٦.
- ١٣- المقفّي الكبير ٢: ٦٦٩.
- ١٤- ديوان البوصيري: ٢٥٤.
- ١٥- المقفّي ٢: ٦٦٦.
- ١٦- المقفّي ٢: ٦٦٦.
- ١٧- ديوان البوصيري (المقدمة): ١٦.
- ١٨- مع البوصيري وابن عطاء الله: ٣٨ - ٣٩.
- ١٩- المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري: ٩٠.
- ٢٠- ديوان البوصيري: ١٣٣.
- ٢١- المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري: ٨٦، وانظر التصوّف الإسلامي: ٢: ١٠٣، الشعراني والتصوّف الاسلامي: ١٤٩.
- ٢٢- مع البوصيري وابن عطاء الله: ٤٧.

- ٢٢- معيد النعم: ٠٣٠ .
- ٢٤ - إغاثة الأمة: ٤٣ .
- ٢٥- ديوان البوصيري: ٢٧١ .
- ٢٦ - المصدر السابق: ٢٦٢ .
- ٢٧- المصدر نفسه: ٢٦٠ .
- ٢٨- المصدر نفسه: ٠٩٩ .
- ٢٩- فوات الوفيات ٣: ٣٦٧ .
- ٣٠- ديوان البوصيري: ٢٣٧ .
- ٣١ - انظر المصدر السابق: ٧٠، ٧٩ .
- ٣٢- إغاثة الأمة: ٤٦ - ٤٧ .
- ٣٣- انظر مثلاً: المختار من شعر ابن دانيال: ٦٩، ٧٢ - ٧٣، ٩٢ - ٩٣، فوات الوفيات ١: ٣٢٩ - ٣٣٠، مع الشعراء أصحاب الحرف: ٣٨ - ٥٥، ٧٥ - ٧٧، ١٠٠ - ١٠٢ .
- ٣٤- ديوان البوصيري: ١٥٥ .
- ٣٥- المصدر السابق، ١٣٤ .
- ٣٦ - المصدر نفسه: ١٦٦ .
- ٣٧- المصدر نفسه: ٢٥٤ .
- ٣٨- معالم القرية: ٠٩٧ .
- ٣٩- المصدر السابق: ٩٧ .
- ٤٠- حسن المحاضرة ٢: ٢١٦ .
- ٤١- الكلمات المهمة في مباشرة أهل الذمة: ٠٩ .
- ٤٢- النجوم الزاهرة ٨: ١٠٨ - ١٠٩، السلوك ٣/١: ٩٠٩ - ٩١٥، ١/٢: ٢٨٤ - ٢٨٦، بدائع الزهور ١/٢: ٢٨٤ - ٢٨٦ .
- ٤٣- ديوان البوصيري: ١٦٣ .
- ٤٤- المصدر السابق: ١٧٢ .
- ٤٥- المصدر نفسه: ٢٦٤ وما ورد بين معكوفتين في البيت الخامس خطأ اقتضته الموسيقى وصوابه (تتل).
- ٤٦- الكلمات المهمة: ٩، وانظر صبح الأعشى ١٣: ٣٦٩ .

- ٤٧- ديوان البوصيري: ٢٦٨.
- ٤٨- انظر: الوثائق السياسية والإدارية في العصر المملوكي الأول (دراسة ونصوص): ٣٥٩ - ٣٧٢.
- ٤٩- صبح الأعشى ١٣: ٣٨٥.
- ٥٠- ديوان البوصيري: ١٦٠.
- ٥١- المخطوطات العربية لكتبة النصرانية ٤: ١١، ١٤، ٦٤.
- ٥٢- معيد النعم: ٧٥.
- ٥٣- ديوان البوصيري: ٨١.
- ٥٤- المصدر السابق: ٩٥.
- ٥٥- المصدر نفسه: ١٧٥.
- ٥٦- نفسه: ٦٣.
- ٥٧- نفسه: ٩٣.
- ٥٨- نفسه: ١٨٢.
- ٥٩- انظر تفصيل ذلك في كتاب: المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري: ١٧١ - ١٧٦.
- ٦٠- ديوان البوصيري: ٢٤١.
- ٦١- المصدر السابق: ١٣٨.
- ٦٢- المصدر نفسه: ١١٧.
- ٦٣- الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار ٢: ٦٠٠٠.
- ٦٤- اصطلاحات الصوفية: ٦٠، النصوص في مصطلحات التصوف: ٩٩.
- ٦٥- ديوان البوصيري: ١٠٧.
- ٦٦- المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري: ١٥٥.
- ٦٧- انظر حديثاً مفصلاً عن الحقيقة المحمدية في شعر البوصيري في كتاب فصول في الشعر ونقده: ٢٢٩ - ٢٥٤.
- ٦٨- ديوان البوصيري: ٢٢١.
- ٦٩- المصدر السابق: ٢٥٧ - ٢٦٠.
- ٧٠- لطائف المنن للسكندري: ١٦٠، لطائف المنن للشعراني ١: ٢٣٤.
- ٧١- المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري: ١٥١.

- ٧٢- ديوان البوصيري: ٢٧٢.
- ٧٣- معيد النعم: ٥٤، النجوم الزاهرة ٨: ١٢٠-١٢٢، تاريخ ابن الفرات ٧: ١٩٩.
- ٧٤- ديوان البوصيري: ١٣٨.
- ٧٥- حسن المحاضرة ٢: ٢٩٦ - ٢٩٨.
- ٧٦- ديوان البوصيري: ٢٨٠.
- ٧٧- رحلة ابن جبير: ٢٠.
- ٧٨- ديوان البوصيري: ١٠٦.
- ٧٩- بدائع الزهور ١/١: ٣٥٣.
- ٨٠- ديوان البوصيري: ١٥١.
- ٨١- المصدر السابق: ١٧٤.
- ٨٢- المصدر نفسه: ١٣٢.
- ٨٣- نفسه: ٢٨٠.
- ٨٤- نفسه: ٢٣٨.
- ٨٥- نفسه: ١٠٢.
- ٨٦- نفسه: ٢٦٣.
- ٨٧- نفسه: ١٣٠.
- ٨٨- نفسه: ١٣٠.
- ٨٩- نفسه: ١٣١.
- ٩٠- نفسه: ٢٦٢.
- ٩١- نفسه: ٩٩، ١٣٠، ١٦٥، ١٧٤، ١٧٥.
- ٩٢- نفسه: ١٦٧.
- ٩٣- نفسه: ١٨٠.
- ٩٤- المدائح النبوية بين الصرصري والبوصيري: ٢٩٠.
- ٩٥- ديوان البوصيري: ٨٩.
- ٩٦- شرح هاشميات الكميث بن زيد: ٤٣.
- ٩٧- ديوان البوصيري: ٢٦٧.

- ٩٨- شرح المعلقات السبع للزوزني: ١٠١.
- ٩٩- ديوان البوصيري: ١٢٣.
- ١٠٠- المصدر السابق: ١٦١.
- ١٠١- المصدر نفسه: ١٥٧.
- ١٠٢- نفسه: ٦٤.
- ١٠٣- نفسه: ٢٢٣.
- ١٠٤- نفسه: ٦٢.
- ١٠٥- نفسه: ٢٦١.
- ١٠٦- نفسه: ٢٢٥.
- ١٠٧- نفسه: ٢٧١.
- ١٠٨- نفسه: ٢٧١.
- ١٠٩- نفسه: ١٦٤.
- ١١٠- نفسه: ١٥٦.
- ١١١- نفسه: ١٥٦.
- ١١٢- نفسه: ١٦٦.
- ١١٣- نفسه: ٢٢٨.
- ١١٤- انظر نفسه: ٤٩، ٨٤، ٩٠، ٩٤، ١١٤، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٥٨.
- ١١٥- انظر نفسه: ٥٧، ٥٩، ٦١، ٦٨، ٧٩، ٨٤، ٩٢، ٢٢٧.
- ١١٦- نفسه: ١٩٨.
- ١١٧- نفسه: ١٤١.
- ١١٨- نفسه: ١٧٢.
- ١١٩- نفسه: ١٢٣.
- ١٢٠- نفسه: ٩٩.
- ١٢١- نفسه: ٢٥٤.
- ١٢٢- الصورة الفنية في شعر أبي تمام: ١٦٢.
- ١٢٣- ديوان البوصيري: ٢٥٤.

١٢٤- نفسه: ١٤٨.

١٢٥- نفسه: ٢٣٣.

١٢٦- نفسه: ١٥٩.

١٢٧- نفسه: ٨٨.

١٢٨- نفسه: ١١٣.

١٢٩- نفسه: ١٩٣.

١٣٠- نفسه: ١٣١.

المصادر والمراجع:

- ابن الأخوة، محمد بن محمد القرشي:
- ١- معالم القرية في أحكام الحسبة، تحقيق د. محمد شعبان وصديق المطيعي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٦.
 - الإسنوي، عبدالرحمن بن الحسن:
 - ٢- الكلمات المهمة في مباشرة أهل الذمة، نشر موشي برلمان، طبعة بروكلين، ١٩٦٩.
 - ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس الحنفي:
 - ٣- بدائع الزهور في وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط٢، ١٩٨٢.
 - البوصيري، شرف الدين أبو عبدالله محمد بن سعيد:
 - ٤- ديوان البوصيري، تحقيق محمد سيد كيلاي، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، ط٢، ١٩٧٣.
 - ابن تغري بردي، أبوالمحسن يوسف:
 - ٥- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، قدّم له وعلّق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م.
 - ابن جبير، أبو الحسين محمد بن أحمد:
 - ٦- رحلة ابن جبير، دار صادر، بيروت، ١٩٨٠.
 - د. حياة ناصر الحجّي:
 - ٧- أحوال العامة في حكم الممالك ٦٧٨-٧٨٤ دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، الكويت، ١٩٨٤.
 - ابن دانيال الموصلّي، شمس الدين محمد بن دانيال:
 - ٨- المختار من شعر ابن دانيال، اختيار صلاح الدين بن أبيك الصفدي، تحقيق محمد الديلمي، مكتبة بسام، الموصل، ١٩٧٩.
 - زكي مبارك:
 - ٩- التصوّف الإسلامي في الأدب والأخلاق، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط٢، ١٩٥٤.
 - السبكي، تاج الدين أبونصر عبدالوهاب:
 - ١٠- معيد النعم ومبيد النقم، دار الحراثة، بيروت، ١٩٨٣.

- السكندري، أحمد بن عطا، الله:
- ١١- لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسى وشيخه أبي الحسن، تحقيق عبدالحليم محمود، مطبعة حسان، القاهرة، ١٩٧٤.
- السيوطي، جلال الدين عبدالرحمن:
- ١٢- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٨٦.
- الشعراني، عبد الوهاب:
- ١٣- لطائف المنن والأخلاق، دار الحكمة، بيروت، ١٩٨٥.
- ١٤- الطبقات الكبرى المسماة بلواقح الأنوار في طبقات الأخبار، دار الفكر، القاهرة، ١٩٥٤ م.
- د. شوقي ضيف:
- ١٥- فصول في الشعر ونقده، دار العارف، القاهرة، ط ٢٠، ١٩٦٧.
- الصفدي، خليل بن أبيك الصفدي:
- ١٦- الوافي بالوفيات، نشر باعثناء ديدرينغ، فرانز شتاينر، فيسبادن، ط ٢، ١٩٧٤.
- طه عبد الباقي سرور:
- ١٧- الشعراني والتصوف الاسلامي، مطبعة العلوم، القاهرة، ١٩٥٢.
- عبدالعليم القبانى:
- ١٨- مع الشعراء أصحاب الحرف، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة، ١٩٦٧.
- عبدالقادر الرباعي:
- ١٩- الصورة الفنية في شعر أبي تمام، نشر بدعم من جامعة اليرموك، اربد، ١٩٨٠ م.
- ابن الفرات، محمد بن عبد الرحيم:
- ٢٠- تاريخ ابن الفرات، تحقيق قسطنطين زريق وآخرين، بيروت، ١٩٣٩.
- القاشاني، كمال الدين عبدالرزاق:
- ٢١- اصطلاحات الصوفية، تحقيق محمد كمال جعفر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١.
- القلقشندي، أحمد بن علي:
- ٢٢- صبح الأعشى في صناعة الإنشا، شرحه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.

- القيسيّ، أبو رياش أحمد بن ابراهيم:
- ٢٣- شرح هاشميات الكميت بن زيد، تحقيق د. داود سلوم ود. نوري القيسي، عالم الكتب ومكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٤م.
- الكتبيّ، محمد بن شاكر:
- ٢٤- فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق د. إحسان عبّاس، دار صادر، بيروت، ١٩٧٣م.
- لويس شيخو:
- ٢٥- المخطوطات العربية لكتبة النصرانيّة، ١٩٢٤م.
- د. محمد ابراهيم الفيومي:
- ٢٦- مع البوصيريّ وابن عطاء الله، مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ١٩٨٣م.
- محمدّ غازي عرابي:
- ٢٧- النصوص في مصطلحات التصوّف، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥.
- د. محمدّ ماهر حامد:
- ٢٨- الوثائق السياسيّة والاداريّة في العصر المملوكيّ (دراسة ونصوص)، مؤسّسة الرسالة، بيروت، ١٩٨٠.
- د. مخيمر صالح:
- ٢٩- المدائح النبويّة بين الصرصريّ والبوصيريّ، دار مكتبة الهلال، الدار العربيّة، دمشق وعمّان، ١٩٨٦.
- المقريزيّ، أحمد بن عليّ:
- ٣٠- إغاثة الأئمّة بكشف الغمّة، لجنة التأليف والطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٥٧.
- ٣١- السلوك لمعرفة دول الملوك، قام بنشره محمد مصطفى زيادة، القاهرة، ١٩٧١.
- ٣٢- المقفّى الكبير، تحقيق محمد اليعلاويّ، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٩١م.